المخزومي
ونظرية النحو العربي

الدكتور زهير غازي زاهد

رمضان ١٤٢٧هـ أيلول ٢٠٠٦م

المخزومي
ونظرية النحو العربي

الدكتور زهير غازي زاهد

رمضان ١٤٢٧هـ أيلول ٢٠٠٦م

هوية الكتاب

اسم الكتاب: .... المخزومي ونظرية النحو العربي
اسم المؤلف:.. الدكتور زهير غازي زاهد
الطبعة: .... الأولى
سنة الطبع: .... ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م
عدد النسخ المطبوعة: .... ١٠٠٠ نسخة.
المطبعة: .... دار الضياء للطباعة والتصميم – النجف الأشرف ٢١٢٣٨٩ - ٠٣٣

لسان العرب

المحتوى

العنوان	الصفحة
الاهداء	٧
التقديم	٩
المخزومي في سطور	١٣
١- قراءة في تراث المخزومي	١٩
قراءة ابداعية	١٩
المخزومي وقضية المدارس النحوية	٢٢
الأسس البنائية للنحو	٣٣
٢- المخزومي وجهوده في تيسير النحو	٤٠
تقديم	٤٠
جهود المخزومي في تيسير النحو	٤٢
هوامش البحث	٥٣
٣- النظرية النحوية بين المخزومي وتمام حسان	٥٥
تمهيد	٥٥
نموذج المخزومي	٥٦
نموذج تمام حسان	٦١
مصادر البحث ومراجعه	٦٧

الإهداء

هذا جهد شاركني بطباعته وعناء تنسيقه في الحاسب ولدي
ليث،
فإليه وإلى أخيه علي وأمهما أهدي هذا البحث،
فهم يتحملون عناء أسرة يملأ أوقات والدها الكتاب
والمكتبة
يضاف إلى عناء ظروف شاذة يمر بها وطننا العزيز.

تقديم

هذه ثلاثة بحوث كتبت بعد وفاة العلامة مهدي المخزومي رحمه الله وكنا في حياته نشعر أن فكرا لغويا صافيا يتحرك في آفاق الدرس اللغوي ومنهجه. لقد كان يحرص على العربية حرصا شديدا فكان منبته الأول في أفق قلعة من قلاع العربية والعلم مدينة النجف الأشرف، فمنذ نشأته الأولى كان يتنقل في مجالسها العلمية وحلقاتها المختلفة في تدريس صنوف المعرفة بجوامع النجف ومدارسها العلمية لكن انتقاله إلى بغداد ثم دراسته في القاهرة فتحت له آفاقا أوسع في النمو والتطور لأخذ العلم والمعرفة، إلا أنه لم تتهيأ له فرصة الدراسة في أوروبا للاطلاع على المناهج اللغوية الحديثة والنظريات التي عرفت آنذاك في النص الأول من القرن الماضي وبداية النصف الثاني كما أتيحت لعلماء آخرين مثل تمام حسان وكمال بشر ومحمود السعران وغيرهم في مصر، إنما كان اطلاعه على ما يترجم آنذاك من العلم اللغوي الجديد أو من سماع محاضرات المستشرقين اللذين يُدْعَوْنَ لزيارة القاهرة وهو تقليد قديم لدى الجامعات في مصر عظيم الفائدة تفتقده جامعاتنا ومؤسساتنا العلمية مع الأسف.

فالبحث الأول من هذه البحوث "قراءة في تراث المخزومي"، وصف ثقافة المخزومي وقراءته للتراث اللغوي واستيعابه استيعابا واعيا لا تقليديا كأكثر مَن قرؤوه ورددوا ما حفظوه من مفاهيم؛ لذلك نجده قد انطلق منه بوعيه القضايا التي يمكن أن تشترك مع ما يجدّ من أساليب ومناهج ليواكب عصره، فاتجه بالدرس إلى إصلاح المنهج. فالمنهج هو الأساس في محاولة الإصلاح وإمكانية التطوير فكانت

خلاصة التراث اللغوي الذي وعاه لدى نحويين أصلاء من الكوفيين والبصريين، فلا يهمه هذا التقسيم إنما يهمه سلامة المنهج والمفاهيم اللغوية.

وأما البحث الثاني "جهوده في تيسير النحو"، فقد وصف ما قام به من محاولة في إصلاح المنهج من جديد نظري في كتابه الأول "في النحو العربي -نقد وتوجيه-" ثم كتابه الثاني الذي كان نموذج التطبيق.

كان المخزومي متطلعا للجديد والتطور في مجال العلم ولما كانت الدعوة إلى التجديد وإصلاح المناهج عالية آنذاك في مصر أخذ بها في مجال النحو مع أستاذه إبراهيم مصطفى صاحب كتاب "إحياء النحو".

لقد سار على منهج التجديد والإصلاح المنهجي للنحو حين عاد إلى بغداد من رحلته العلمية، فدعوته إلى إصلاح منهج النحو لم تكن تختص بإصلاح الكتاب النحوي واختصاره على وفق المنهج التقليدي في إيضاح مسائله وأمثلته أو حذف أبواب منه إنما كان لإصلاح المنهج الذي ساد قرونا يدور حول فكرة العوامل والاهتمام بشكل حركات الإعراب.

فكان اهتمامه بنظرية المعنى؛ لذلك دعا إلى إسقاط فكرة العوامل والاهتمام بالتركيب وما يتألف منه ومعرفة وظائف مكوناته وربطها في سياقها.

فالنظام النحوي إذن ليس الحركة الإعرابية ومعرفة عاملها إنما هو شبكة من المفاهيم والقرائن يتصل بعضها بالبعض الآخر بدءا من الصوت والصيغة ثم التركيب وسياقه لنصل إلى المعنى الدلالي، والوصول إلى المعنى الدلالي هي غاية النحو.

وأما البحث الثالث "النظرية النحوية بين المخزومي وتمام حسان" فقد وصف نموذج المخزومي في نظرية النحو العربي وما استنبطه من التراث اللغوي العربي أساسا من منهج مستفيدا مما ظهر في عصره من أفكار ومفاهيم في اللغة مقارنا

بنموذج تمام حسان الذي انطلق فيه من تراثه اللغوي أيضا ولكن بمنهج جديد مما شاع في الغرب انتقاه هو المنهج البنيوي السياقي، وذلك ما أفاده من دراسته في أوربا وأستاذه فيرث خاصة.

أرجو أن أكون قد أضأت جانبا من حياة هذا العالم الذي قضى حياته في صراع في بيئة يكثر فيها حاسدو العلماء ويسود فيها أنصاف المتعلمين الذي يريدون للحياة أن تقف على ما ألفه الأجداد ثابتة لا تتحرك. لقد عانى هذا الصراع جيل المخزومي كما عاناه جيلنا ونرجوه تعالى أن لا تعانيه أجيال بعدنا في هذا البلد المتعدد الأجناس والعقائد والأغراض. نأمل أن يكون الاختلاف فيه في حدود التنوع في العطاء لا خلاف التضاد في فهم الأشياء وتأوليها، لينعم المجتمع بالصفاء والتقدم والازدهار، وبه نستعين.

في الجمعة ٢٠٠٦/٨/٤ زهير غازي زاهد

المخزومي في سطور

بدأ عنوان بحثي بالمخزومي فينبغي لي إذن أن أقدمه بسطور عن حياته .

ولد مهدي بن محمد صالح المخزومي في النجف ١٩١٩م وهي المدينة العربية ذات الجامعة الدينية. ومركز الإشعاع في هذه المدينة مرقد الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام فيؤمها طلبة العلوم الدينية من مختلف أرجاء العالم الإسلامي من لبنان وإيران وأفغانستان وباكستان والهند إلى جانب الطلبة العراقيين والجامعة في النجف تناظر جامعة الأزهر بمصر. ولهذه المدينة ماض في حفظ التراث العربي الإسلامي في العهد العثماني زمن التتريك، لعنايتها بحفظ العلوم العربية كما كان لها مواقف وجهود خطيرة في الحركات الوطنية والسياسية التي أدت إلى استقلال العراق خصوصا مع شقيقاتها كربلاء وبغداد والبصرة والموصل وغيرها من مدن العراق، كما كان لها حضور في تاريخ العراق الحديث في مجالات الحياة السياسية والأدبية والعلمية ولإسكات صوتها وجه الطغاة إليها قنابلهم وصواريخهم كما وجهت إلى باقي مدن العراق المناضلة.

في هذه المدينة كانت ولادة المخزومي ونشأته، فتلقى علمه في حلقاتها العلمية على يد أساتذة علماء فأتقن العربية وكان لامعاً فيها منذ نشأته طموحا متفتح الفكر على آفاق المستقبل ولم يكن مقيداً بقيود المحافظة التي منعت غيره من التطور الفكري والعلمي؛ لذلك سعى إلى أن يدخل معترك التحصيل العلمي عل الطريقة الحديثة وقد وجد في نفسه الكفاءة والقدرة على تكملة دراسته فأثمر جهده الحصول على بعثة لنيل الشهادة الجامعية من كلية الآداب بجامعة القاهرة (فؤاد الأول)

فحصل عليها سنة ١٩٤٣م. وكانت جامعة القاهرة مركز جذب لطلبة الدراسات العليا في الثلاثينات والأربعينات فبعد حصوله على الشهادة الجامعية وعودته إلى بغداد مدرساً العربية في دار المعلمين الريفية في الرستمية ببغداد لم يتخذ مهنة التدريس للارتزاق إنما طمح أن يحصل على فرصة أخرى من وزارة المعارف للحصول على شهادة التخصص العالي (الماجستير) من الجامعة المذكورة فعاد إلى القاهرة وقد أثبت جدارة بحصوله على درجة التفوق في الدراسات العليا مع إعجاب أساتذته وأبرزهم الأستاذ إبراهيم مصطفى صاحب كتاب " إحياء النحو " والمشرف على رسالته (الخليل بن احمد الفراهيدي- أعماله ومنهجه) وقد أجيزت سنة ١٩٥١م. لقد رأى المخزومي في شخصية الخليل المثال العلمي والأخلاقي الذي يستحق العناية والجهد فكان موضوعه لمرحلة الماجستير. إذ كان الخليل علما متفردا في علمه كما كان كوكبا ساطعا في أخلاقه وزهده وإبائه وقناعته. فوجد المخزومي خصائص شخصيته في الخليل فاصطحبه في رسالته فكانت دراسته إياه دراسة علمية استحوذت على إعجاب أساتذته فمنحوه الدرجة العلمية مع إعجابهم بعلمه وقدرته. واستمر في طريقه العلمي ليكمل دراسته والحصول على الدرجة العليا فاختار هذه المرة (مدرسة الكوفة ومنهجها في دراسة اللغة والنحو) موضوعا لرسالته للدكتوراه وكان المشرف عليه الأستاذ مصطفى السقا. وانتهى من إعدادها ومناقشتها وأجيزت سنة ١٩٥٣م وكان فيها موضع إعجاب من أساتذة القاهرة لأنهم رأوا فيه نموذجاً لم يتوقعوه في مجال اللغة والعلم بها وكان لمدرسة الكوفة صدى في أوساط الدرس الجامعي والبحثي وكذلك موضوع رسالته السابق مما دفع الأستاذ المشرف عليه أن يقول فيه:

"وقد وفق الدكتور مهدي في اختياره موضوعي البحثين توفيقا كبيراً جداً، إذ أتاحا له الوقوف على المنبعين الأصليين اللذين تفجرت منهما الدراسات اللغوية والنحوية منذ نشأة التأليف فيهما كما وقف على منهجين مختلفين اختلافاً كثيراً في مقاييسهما لتفسير الظواهر اللغوية والنحوية أول المنهجين منهج علماء البصرة ورأسهم الخليل الفراهيدي الازدي (١٠٠-١٧٥هـ) وهم يعتمدون على القياس

العقلي... وثاني المنهجين منهج علماء الكوفة ورأسهم علي بن حمزة الكسائي النحوي شيخ القراء في مدينة السلام توفي ١٨٩هـ وهؤلاء لا يسرفون في القياس إسراف علماء البصرة وإنما يعولون على ما سمع من العرب[٢]...

ولم يكن المخزومي في ثناء وجوده في القاهرة غافلا عما يجري من تطور ودراسات في العربية نحوها وصرفها وأصواتها وبوادر التحديث في هذه الدراسات ومن الاطلاع على ما لدى الغرب من دراسات ومناهج لغوية كانت الجامعة آنذاك تطّل عليها وتفيد منها من خلال المبعوثين الأوائل الى الغرب ثم من خلال الزيارات العلمية للمستشرقين إلى الجامعات المصرية وخصوصا جامعة القاهرة مثل بول وبرجستراسر وغيرهما ومن خلال ترجمة الدراسات أو المقالات في مجال علم اللغة الحديث ومناهجه خصوصا المنهج الوصفي الذي كان شائعا وكان المخزومي محتفظا ببعض الترجمات وكانت ذات صلة بدراسته كمقدمة كوتولد فايل لكتاب الإنصاف للأنباري ومقدمة فلوجل في المدارس النحوية لكتاب الفهرست لابن النديم كل ذلك كان تحت بصر المخزومي وقد تفاعل مع هذا التيار الحديث في الدرس اللغوي مكونا رأيا وصورة لما جرى عليه النحو العربي ثم لما ينبغي للدرس النحوي أن يكون عليه.

لقد كان المخزومي عالما وأستاذا؛ لذا كان له مريدون وتلامذة معجبون في وسط جامعة بغداد التي كان فيها أو خارجها ممن اطلع على بحوثه وآرائه. وفي حياة العلماء الكبار يكون لهم حاسدون منافسون كما يكون لهم معجبون مريدون وكان لذلك الحسد أثر في أحداث حياته[٣] ولكن لم يكن له أثر في سمو خلقه وتطوره العلمي؛ لذا ظلت آراؤه في الدرس النحوي تحرك قاعات الدرس وأفكار الدارسين وسأتناول ذلك بعد حين. لكن هذا الإنسان الحامل براءة العلم وتواضع العلماء يعيش في بغداد، وبغداد ضمت مشارب وأمزجة واختلافا اجتماعيا وفكريا فواجهت دعوته عقبات لا صلة لها بالعلم، كانت تصل حد العداء أحيانا من أصحاب التيار المحافظ على القديم والكاره للجديد في كل شيء، إلا ما وافق مصالحه وهواه. وبقي المخزومي يعاني في مواقف أشباه الأميين في تخصصهم،

يستعينون لمحاربته بوسائل غير شرعية، ويثيرون التصدية والضجيج لتغطية صوته بجهود -والله- لو بذلوها في العلم لأفادوا واستفادوا، ولكنها النفوس المريضة بالجهل والحقد لا ترى أكثر من أبعاد عينيها وتتصور أنه العالم الأرحب وتنكر ما يخرج عن قصر نظرها ومحدودية معرفتها، وتصل على قتله بمختلف الذرائع والحجج اللامنطقية. وسيطر هذا التيار الذي يصر على الثبات وعدم التغيير على الآفاق الجامعية حقبة وكانت السلطة تشجع ذلك فهي تتماشى مع الثبات وعدم التغير بغلق الأبواب في وجه دعوات التطور والتجديد.

لقد اختلف هذه الحال عما عليه في مصر مثلا فكان الصراع بين أنصار الجديد والقديم أو بين التحول والثبات في المفاهيم في مجالات العلم والأدب يحصل ووقفت أصوات في وجه طه حسين وإبراهيم مصطفى وتمام حسان، ولكن لم يصل الأمر إلى العداء ومحاولة سحق الآخر. نجد الأصوات العلمية تبرز في مصر وتلاقي التشجيع وإن كان ذلك بحدود، لكنها تحاط في بغداد بعواصف من الحقد إلا ومضات فيها تتحدى الاضطهاد، وذلك خلاف ما كانت عليه بغداد قديما إذ كان العلماء يقصدونها ليُعرفوا ويُشهروا.

ظل المخزومي يسير في طريقه العلمي بالرغم من كل المثبطات والعوائق فتحمل سهام الحقد وادعاءات المغرضين حتى وصل الأمر إلى فصله مع مجموعة من زملائه من الجامعة سنة ١٩٦٣م، والتغرب إلى المملكة العربية السعودية فاستقبلته جامعة الرياض ١٩٦٤ وسلمته قسم اللغة العربية للإفادة من علمه على الرغم من أن السعودية تمثل مجتمع الثبات والمحافظة لكنها مع ذلك لم ترفض الجديد في مجال اللغة، فكانت أوسع أفقا من بغداد في هذا المجال آنذاك. ولاحقه حقد السلطة وتخرصات أعوانها إلى هناك، لكن حكمة الجامعة والقائمين عليها عرفت الحقيقة فلم تتأثر، ولما عاد إلى وطنه بعد غربة خمس سنين ١٩٦٨، عاد إلى كليته الآداب ببغداد مدرسا ثم رئيسا لقسم العربية لكنه لم يسلم من شراك الحقد وحبائله؛ لأن النفوس هي هي لم تتبدل إلا بعض الأغطية والأقنعة. وظل يسير في طريقه الشائكة يتلمسه تلمسا متجاوزا عثراته بذكاء حتى وصل الأمر بالنظام السائد آنذاك إلى عدم

احتمال هذه الأصوات الخارجة عليه والداعية إلى آفاق التقدم العلمي وحرية الرأي وحرية البحث فأحيل على المعاش (التقاعد) مع مجموعة من زملائه الجامعيين سنة ١٩٧٩.

وبعد إحالته على المعاش (التقاعد) لازم بيته ومكتبته فكان مجلسه في بيته عامرا بتلامذته ومريديه وزملائه وكنت من رواد مجلسه الأسبوعي يوم الجمعة بعد نقلي إلى جامعة بغداد ١٩٩١م فكان كما وصفه الدكتور المطلبي[٤] : جلدا صبورا كتوما لا يشكو من الحياة بالرغم من صعوباتها ومعاناته فيها. يستقبل الأحداث بابتسامته الرقيقة وتعليقاته الواعية على الأحداث في العراق. وكم كان يتمنى أن يرى لليل العراق آخرا كان هذا أمله حتى آخر أيامه.

كانت وفاته يوم الجمعة ١٩٩٣/٣/٥م ظهرا فبينما نحن في مجلسه نستمع إلى حديثه عن الخليل والقياس لديه إذا به وضع يده على جبهته ثم ارتمى متكئا على كرسيه فأسرعنا لإسعافه فكان القدر قد سبقنا. فاجتمع أحباؤه ومريدوه فشيعوه من بغداد إلى كربلاء ثم إلا مثواه الأخير في النجف الأشرف منبته الأول رحمه الله وإنا لله وإنا إليه راجعون.

وقد خلَّف مجموعة من الأعمال العلمية ، بعضها لا يزال مخطوطا، أما أعماله المطبوعة فهي:

١- الخليل بن أحمد الفراهيدي – أعماله ومنهجه – ط الزهراء- ١٩٦٠، ط٢ دار الرائد العربي ١٩٨٦ بيروت.

٢- مدرسة الكوفة – منهجها في دراسة اللغة والنحو – ط دار المعرفة ١٩٥٥ بغداد، ط٢ البابي الحلبي سنة ١٩٥٨، ط٣ دار الرائد العربي ١٩٨٦ بيروت.

٣- في النحو العربي : نقد وتوجيه، ط١ المكتبة العصرية ١٩٦٤ بيروت ط٢ دار الرائد العربي ١٩٨٦.

٤- في النحو العربي : قواعد وتطبيق، ط مصطفى البابي الحلبي ١٩٦٦، ط٢ دار الرائد العربي ١٩٨٦ بيروت.

٥- الدرس النحوي في بغداد، ط دار الحرية بغداد ١٩٧٥، ط٢ دار الرائد العربي ١٩٧٥ بيروت.

٦- عبقري في البصرة- الفراهيدي طبع في بغداد ١٩٧٣ ثم في بيروت دار الرائد العربي ١٩٨٦.

٧- أعلام في النحو العربي، الموسوعة الصغيرة ٦٠.

٨- كتاب العين – للخليل أحمد الفراهيدي – دراسة وتحقيق بمشاركة الدكتور إبراهيم السامرائي في ثمانية أجزاء طبع الأول منها في دار الرسالة في الكويت ١٩٨٠ والباقية في بغداد.

٩- مدخل إلى نحو اللغات السامية المقارن – سباتينو موسكاتي – ترجمة بمشاركة الدكتور عبد الجبار المطلبي.

١٠- ديوان الجواهري بالمشاركة مع الدكتور علي جواد الطاهر والدكتور إبراهيم السامرائي ورشيد بكتاش.

١١- قضايا نحوية- المجمع الثقافي- أبو ظبي ٢٠٠٢م.

وأما المخطوطة فهي:

١- في الأصوات اللغوية عند العرب.

٢- إعادة تحقيق معجم العين كاملا وبيان ما وقع من الخطأ في الطبعة السابقة.

وله بحوث ومقالات في المجلات والصحف كثيرة ﴿أنظر المخزومي وأثره في تيسير النحو- مختار رسالة ماجستير جامعة الفاتح ٢٠٠١﴾.

وللمخزومي بحوث ومقالات نشرها في الصحف والمجلات العراقية والعربية في مجال اللغة والأدب (أنظر تفصيل ذلك في كتاب المخزومي وأثره في تيسير النحو لمحمد بريون رسالة ماجستير في جامعة الفاتح كلية الآداب)

قراءة في تراث المخزومي[1]

قراءة إبداعية:

لم تكن قراءة المخزومي للتراث قراءة مستهلكة كما هي قراءة الكثير الكثير ممن عنوا بهذا العلم على امتداد تاريخ النحو العربي الذين أعادوا ما قاله سابقوهم وكرّروه في كتبهم ومباحثهم. وموقف المخزومي من قراءة هذا النمط من النحويين موقف الناقد الساخر في كثير من الأحيان. ولم تكن قراءته قراءة ناقدة فقط تكتفي بنقد النموذج وتحاول تحطيمه دون وضع البديل الناضج أو اقتراحه كما هو الغالب على قراءة ابن مضاء القرطبي المتوفى ٥٩٢ هـ في كتيّبه المعروف (الردّ على النحاة). لقد كانت قراءة المخزومي قراءة إبداعية فيها خلق واجتهاد ومحاولة تجديد.

هكذا أستطيع أن أحدد تراث المخزومي وجهوده في اللغة والنحو. فهو لم يكن كثيراً نوعاً وأثراً في آفاق الدراسة والدارسين في العالم العربي وهذا تقويمه وتقييمه أيضا لدى دارسيه. أذكر شهادة أستاذه الذي أشرف على بحثه في الدكتوراه الأستاذ مصطفى السقا. قال: (وكل مزايا البحث العلمي الأمين قد اجتمعت للدكتور المخزومي. وأعتقد أننا إذا قرأنا النحو القديم كما قرأه الدكتور المخزومي فإننا سنكون قادرين على أن نضع خطة شاملة موثقة لتهذيب النحو العربي وتنقيحه وإقراره على القواعد المحكمة..)(١).

وشهادة أخرى للدكتور حلمي خليل(٢) في المفهوم النظري لمنهج العلمي عند المخزومي انه (مفهوم إذا نظرنا إليه بصورة عامة وجدناه يقترب إلى حدّ ما من تصور

[1] نشر هذا البحث في مجلة معهد المخطوطات العربية العدد ٣٨، ١٩٩٥ القاهرة.

(١) انظر في النحو العربي – نقد وتوجيه – [التصدير] ص١٠ .

(٢) استاذ كلية الآداب بجامعة الاسكندرية .

علماء اللغة المحدثين للدراسة العلمية للغة وخاصة فيما يتعلق بطبيعة العلاقات بين مستويات التحليل اللغوي وتداخلها وكذا طبيعة كل مستوى منها وموضوعه)[٣] بهذا نستطيع أن نراه في كتبه الثلاثة: (الخليل بن أحمد) و(مدرسة الكوفة) و(في النحو العربي -نقد وتوجيه-). لقد استوعب فيها نظرية النحو العربي ومدارسه أو مذاهبه ودارسيه منذ نشأته حتى العصر الحديث وعبّر عنها بوعي ووضوح منهج[٤] وبرؤيته التي تشير إلى نزوعه للجديد والحداثة فهو (قد اطلع بصورة أو بأخرى على الفكر اللغوي الحديث لأن علماء العربية القدماء رغم درسهم للجوانب الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية لم يكن لديهم هذا التصور الواضح لمنهج الدراسة اللغوية كما يشير إليه الدكتور المخزومي، على الأقل، على المستوى النظري)[٥].

لقد عبّر عن مفهومه للدرس اللغوي ومنهجه كما ينبغي له أن يكون في رأيه واجتهاده نظراً وما ينبغي أن نطرح منه لتَخَفُّفِ النحو الذي أثقلته القرون بأخلاط المناهج واختلاط بين مستويات الأداء اللغوي.

أما كتابه الرابع (في النحو العربي -قواعد وتطبيق-) فقد حاول فيه أن يعطي نموذجاً تطبيقيا لذلك كله فالنحو عنده (دراسة وصفيّة تطبيقيّة)[٦] ولم يكن يفضّل من الآراء إلاّ ما وجده موافقاً للمنهج الوصفي الذي تبناه وهو منهج اتضح لديه بما أفاده من النحويين الأصلاء الأوائل البصريين والكوفيين ومن المجدّدين المحدثين وأهمهم إبراهيم مصطفى والشيخ أمين الخولي وما أفاده عن طريق الترجمة من قضايا علم اللغة الحديث ومباحث المستشرقين. وهو منهج يتصف بأهمِ المبادئ التي اتصف بها منهج الدراسة الوصفية وأبْعَدِها أثراً في توجيه دراسة اللغة حديثا. وقد

---

[٣] العربية وعلم اللغة البنيوي ٧١ .

[٤] انظر وصف الاستاذ السقا منهجه في مقدمته (في النحو العربي – قواعد وتطبيق –) ص٣ ، وانظر ايضا العربية وعلم اللغة البنيوي ص٧١ .

[٥] العربية وعلم اللغة البنيوي ص٧١ .

[٦] في النحو العربي – نقد وتوجيه – ص١٩ .

ذكرها في الصفحة الأولى من مدخل كتابه (في النحو العربي -نقد وتوجيه-)[7] هذا المنهج بعيد عن النزعة المنطقية والفلسفية التي طالما نقدها ونقد آثارها في حديثه عن النحويين المتأخرين خاصة. والى جانب منهجه الوصفي في دراسة النحو دراسة جديدة وإصلاح منهجه كان شديداً في الحفاظ على سلامة العربية واستمرار فصاحتها مما دعا بعض دارسيه إلى وصفه بالمعيارية في تطبيقاته النحوية[7] وبمخالفة المنهج الوصفي الذي أكدّه في نظره مما يدعو للقول: (إنَّ وصفيته تنطلق من التراث اللغوي العربي وجانب كبير من جهوده في تيسيره لجعله نحوا تعليميا في تطبيقاته خاصة وسنعرض لهذه القضية كما يدرك قارئه أنه لم يكن ليرى إلاّ ما اعتقد صوابه ووافق منهجه في النحو وكان لا يصرّ على رأي ثبت له ضعفه إنما قد يتخلّى عن بعض آرائه حين يرى غيرها بعد حين (إنما يعنيه قيمة الرأي في ذاته من أي أفق ظهر)[8] وهي صفة العلم المتطور الذي ينشد الحقيقة والصواب في علمه. فكان إماماً من أئمة النحو في نظره، وكان من كبارهم في تطبيقاته؛ لذا يمكننا القول: (انه أنحى من عاصرناه ولم نعاصره في هذا القرن بل القرون الماضية).

إن قراءة المخزومي وتقييمها ينبغي أن تكون في هذا الإطار لا أن نحاول أن نستعير لها منهجاً غريباً عن اللغة أو عن روح العربية وخصائصها ونحاول أن نقسره ونفرضه على الدرس النحوي ونسحبه على المخزومي. لقد كان يرفض هذا الأسلوب لدى الدارسين المحدثين ويصرخ في وجوههم وأقلامهم أن هاتوا ما عندكم ولا تأتوني بما عند غيركم وتتباهون به مفتخرين. ونحن معه في هذا الاتجاه في دراسة نحو العربية على وفق منهج وصفي متطور من تراثنا النحوي مع الإفادة من الجديد في علم اللغة. لقد حاول واجتهد ووصل إلى ما وصل إليه وعلينا الاستمرار إن كان لدينا قدرة على الإضافة والإبداع.

---

[7] السابق وانظر العربية وعلم اللغة البنيوي ٦٨ ، ٦٩ .

[7] انظر العربية وعلم اللغة البنيوي ٧٠ .

[8] هذا قول الاستاذ السقا في تصديره (في النحو العربي – قواعد وتطبيق –)

المخزومي وقضية المدارس النحوية

اختلفت آراء الدارسين المحدثين ومناهجهم في دراسة مذاهب النحو العربي ومناهجه. أما القدماء فقد أوضحوا مذهبين في النحو هما: المذهب البصري وهو الأسبق في الظهور فالبصرة موطن نشأة النحو، ثم المذهب الكوفي، وترجموا لأجيال النحويين لكل من المذهبين. ولا خلافَ فيما بينهم في هذا غير أنّ السيرافي (ت ٣٦٨ هـ) أشار إلى أنَ جماعة من النحويين أخذوا عن شيوخ المذهبين في النصف الثاني من القرن الثالث للهجرة فجمعوا بين الرأيين وخلطوا المذهبين[٩].

وأما الدارسون المحدثون فمنهم من اطمأن إلى تقسيم القدماء الثنائي ولم يتجاوز المذهبين البصري والكوفي. من المستشرقين القائلين بهذا يوهان فك في كتابه (العربية) وأوليري في كتابه (كيف انتقلت العلوم اليونانية إلى العرب) ومن العرب احمد أمين في (ضحى الإسلام) وأستاذ أمين الخولي في بحثه (الاجتهاد في النحو) وتمام حسان في كتابه (الأصول) وغيرهم ومن الدارسين المحدثين من أنكر المذهب الكوفي وشك في أن يكون للكوفيين مذهب نحوي ومنهج مكتمل والقول بوجود هذا المذهب من اختلاف النحاة المتأخرين[١٠] ومن أوائل من قال بذلك المستشرق

---

[٩] أخبار النحويين البصريين للسيرافي ٨١ ذكر ابن كيسان وأبا بكر بن شقير وأبا بكر بن الخياط . وكذا ذكر ابن النديم في الفهرست ١٢١ ... وما بعدها جماعة من العلماء ممن خلط المذهبين .

[١٠] مدرسة الكوفة ٤٠١ .

كوتولد فايل الذي أنكر أن يكون للكوفيين مدرسة نحوية خاصة[11] وكذا الدكتور إبراهيم السامرائي ردّد هذا الرأي[12].

ومن الدارسين من قال بوجود ثلاث مدارس كالمستشرق فلو كَل في كتابه عن المدارس النحوية فأثبت مدرسة البصرة ومدرسة الكوفة ومدرسة بغداد[13] وتابعه بروكلمان في ذلك مترجما لرجال المدارس الثلاث[14].

ومن الدارسين من أثبت أربعة مذاهب للنحو العربي كالأستاذ طه الراوي لكنه جعل أصولها مذهبين للبصرة والكوفة. أما المذهب البغدادي فأصله الكوفة والمذهب الأندلسي يرجع إلى البصرة[15]. ومنهم من جعلها خمس مدارس أضاف إلى الأربع المذكورة المدرسة المصرية[16].

ومن الدارسين من سلك منهجا آخر وهو انه لم يسمها مدرسة بصرية أو كوفية إنما درسها على وفق الشيخ الذي يتأثر به تلامذته والكتاب الذي يكون له أثر تتسع دائرته في الدرس النحوي . فعنده الكتابُ المعزو إلى سيبويه وشروحُهُ مدرسة ثم للزمخشري وكتابه (المفصل في علم العربية) مدرسة ولابن مالك في ألفيته وشروحها مدرسة[17].

أما أستاذنا المخزومي فقد درس هذه القضية دراسة مستفيضة على وفق منهجه ووضوحه الفكري المنظم. فكان يخطط للكتاب الذي يصنفه فيرسم منهجه ثم يفرغ

---

[11] مقدمة فايل لكتاب الانصاف لابن الانباري – ط أوربا ترجمة عبد الحليم النجار – مدرسة الكوفة ٤٠١ ، الدرس النحوي في بغداد ٢٣٦ .

[12] انظر كتابه (المدارس النحوية اسطورة وواقع) .

[13] مقدمة فلوكل لكتاب الفهرست لابن النديم الذي نشره . وكتابه (المدارس النحوية) ذكره بروكلمان في تاريخ الادب العربي ١٣٠/٢ ، ١٩٧ ، ٢٢٣ ، ٢٣٥ ، وانظر الدرس النحوي في بغداد ١٨٨ .

[14] تاريخ الادب العربي ١٢٨/٢ ...

[15] نظرات في اللغة والنحو ص١١ ، مدرسة الكوفة ١١٧ .

[16] انظر المدارس النحوية للدكتور شوقي ضيف ، المدارس النحوية للدكتورة خديجة الحديثي .

[17] انظر تطور الدرس النحوي للدكتور حسن عون .

ما يتوصل إليه من نتائج ولأنه لا يؤمن بالثبات كان يعدّل في بعض آرائه في القضية إذا اتضحت حقيقتها على غير ما أثبته فيما سبق وهي أمانة العلماء كما أشرت إليه.

لقد جعل كتابه في (الخليل أعماله ومنهجه) للنحو العربي في مراحل تطوره الأولى منذ كونه أنظاراً لغوية في زمن أبي الأسود الدؤلي حتى عبد الله بن أبي إسحاق الذي جعله أول نحوي بالمعنى الاصطلاحي للنحو؛ لأنه أول من استعمل القياس والعلل في أحكامه النحوية واللغوية فيه نشأة النحو حتى إذا وصلنا إلى الخليل ابن أحمد الفراهيدي وجدنا النحو علماً ذا أسس منهجية . فهو إذن وصل إلى مرحلة النضج. (والدراسة النحوية إلى زمن الخليل ليست بصرية كما يدل عليه هذا الوصف إذ لم تتضح فيها معالم المنهج البصري الذي رأينا انه كان قد تأثر بالمنهج الكلامي تأثراً مباشراً بعد أن مهّد النحاة البصريون الذين جاؤا في الطبقات التالية السبيل للفلسفة تغزو مباحثهم ومذاهبهم)[18] فالنحو المدرسي المتعدد المناهج بدأ عند المخزومي بعد الخليل، ومن الخليل تطور اتجاهان في الدرس النحوي: أحدهما: البصري الذي تطور مع أجيال النحويين التي درست (الكتاب) وتأثرت بالثقافة المترجمة المنطقية والفلسفية. وأوضح من مثّل هذا المنهج أبو العباس المبرد في تمسكه بالقياس وتحكيمه القواعد في قضايا اللغة وأساليبها فهي ذات نزعة عقلية[19]. أما الاتجاه الثاني فهو الكوفي وأول من رسم منهجه وأقام أسسه علي بن حمزة الكسائي (ت١٨٩ه) ثم أقام بناءه تلميذه أبو زكريا الفراء (ت٢٠٧ ه) وأذاعه في حلقات الدرس وناظر فيه وقام عليه خير قيام أبو العباس ثعلب (ت٢٩١ه) و(كان شديد التعصب له شديد الغيرة عليه)[20].

لقد كان كتابه (مدرسة الكوفة) دراسة مفصلة لجهود الكوفيين في تأسيس مدرستهم. تناول فيه المعارف والعلوم التي شغلت الكوفة قبل النحو فكانت لها مدرسة في الفقه ورواية الشعر وقراءة القرآن الكريم. ثم توجهت لدراسة النحو

---

(18) مدرسة الكوفة ٤٠٦ .

(19) الاصول لتمام حسان ٣٦ .

(20) مدرسة الكوفة ١٠٣ ، الدرس النحوي في بغداد ٩ .

فكانت لها مدرسة إزاء مدرسة البصرة وأسس منهجية ذات نزعة نقلية إزاء منهجه في مجالات اللغة أصواتها وصرفها ونحوها وغير ذلك مما يتعلق بالدرس اللغوي. وهي المدرسة الكوفية وان انتشرت وقام بناؤها في بغداد لكنها ظلت توصف بالكوفية وفي خلال قرن ونصف أي حتى نهاية القرن الثالث. وآخر مجتهديها ثعلب (ت٢٩١هـ). أقامت منهجها وكان فيها شيوخ وتلامذة يتعصبون لها ويناظرون علماء البصرة في ضوء منهجها.

وقد لَمح في أثناء دراسته مدرسة الكوفة إلى مدرسة بغداد النحوية التي خلطت المذهبين وجمعت الرأيين في قوله: (ونحن نعلم أنَّ الكوفيين والبصريين قد اجتمعوا في بغداد واجتمع حولهم الطلاب وكان بين الشيوخ والطلاب من كلتا المدرستين اتصالاتٌ ومباحثاتٌ ومناظرات ووُجد أخيراً كثيرٌ من الطلاب وقد جلسوا إلى شيوخ المدرستين وأخذوا عنهم جميعا فكانت هذه الظاهرة نقطةَ تحول أو بادرةً تومئ إلى نشأة اتجاه جديد. فيه مزايا الاتجاهين اللذين عاشا جنباً إلى جنب فترة طويلة من الزمن وهما يسيران في اتجاهين متباعدين ونشأ من هذا الاتجاه مدرسة بغداد النحوية)[٢١].

وفي موضع آخر ذكر تلامذة أخذوا على شيخي المذهبين في القرن الثالث: المبرد وثعلب مثل كيسان (ت٢٩٩هـ) وعلي بن سليمان الأخفش الصغير (ت٣١٥هـ) وهم ممن خلط المذهبين فهم (لا يُعَدّون من رجال المدرسة الكوفية وان تلمذوا لثعلب وأخذوا عنه ولا يُعدّون من رجال المدرسة البصرية وان أخذوا عن بصريين وإنّما هم رجال مدرسة جديدة نشأت في بغداد عن تلاقي المدرستين فيها ونهجوا نهجاً جديداً فيها انبنى على الانتخاب من أصول المذهبين والتوفيق بين منهجي المدرستين)[٢٢].

---

[٢١] مدرسة الكوفة ١٠٣ .

[٢٢] السابق ١٠٥ .

فالمخزومي إذن قال بوجود ثلاث مدارس أو مذاهب في النحو العربي وأثبت هذا في كتابه (مدرسةالكوفة) وهو ما ذهب إليه المستشرق فلوكل كما مرت الإشارة.

وقد أعاد النظر في تاريخ النحو ومذاهبه في كتابه (الدرس النحوي في بغداد) على وفق النضج المعرفي الذي وصل إليه في رحلته العلمية الطويلة وفي هذا الكتاب كانت دراسته متجهة نحو المنهج أيضا وتقسيم المذاهب النحوية بحسب الاختلاف المنهجي لا على أساس المدن والأماكن. لقد عَدَلَ في هذا الكتاب عن القول بالمدرسة البغدادية الثالثة بل عدل أيضا عن التأكيد على مصطلح مدرسة وكرر مصطلح المذهب كما هو لدى الدارسين القدماء ، وبعد تأمل طويل في النحو وتاريخه ورجاله بعد عصر المبرد وثعلب في القرن الرابع وأواخر الثالث للهجرة ظهر من خَلَط المذهبين من التلاميذ الذين اخذوا النحو على شيخي المذهبين ولكن لم يتوصل إلى أنهم أنشأوا مذهبا مستقلا له منهجه ومصطلحاته. إنما درس القرن الرابع باعتباره حلْقةً من حلقات تاريخ النحو بعد رحيل آخر مجتهد من نحويي الكوفة. وعاد يحكّم مقياسه في المنهج وخصائصه لوصفِ النحوي أو نسبتِه إلى مذهب نحوي معين. لقد عدّ المذهبين البصري والكوفي هما الأصل ولكل منهما خصائصه المنهجية يعتمد عليها ويجادل في ضوئها ولكلٍ مصطلحاتُهُ التي تتردّد لديه في بيان الظواهر اللغوية المختلفة. أما ما جاء بعد ذلك فهو خلط وتضخيم في القواعد والمصطلحات والذي ذهب إليه في المذهب الثالث الذي قام على خلط القولين لم يعد في رأيه مذهبا أو مدرسة تقوم إزاء المدرستين المذكورتين. وقد ذهب إلى أنّ مصطلح البغداديين الذي تردّد على ألسن البصريين أحيانا كالمبرد لا يعني إلاّ الكوفيين فهم أسسوا مدرستهم وأشاعوها في بغداد ولم يكن للنحو البصري في بغداد وجودٌ إلاّ في القرن الثالث حين سكن المبرد شيخ البصريين بغداد وأقامَ حلقتَهُ إزاء حلقة أبي العباس ثعلب شيخ المدرسة الكوفية والقيّم على إشاعة منهجها بين الدارسين. وقد ناقش دعوى تيارين في هذا المجال وفنّده تفنيداً علميا: أحدهما الذاهب إلى إنكار مدرسة الكوفة أو المذهب الكوفي ينافس المذهب البصري وقد

أشرت إلى ذلك، ثم أعاد الحديث في كتابه هذا بصورة مفصلة راداً دعوى كوتولد فايل وغيرِه في هذا المجال.

والتيار الثاني الذي يرى أنّ مدارس النحو العربي تجاوزت البصرية والكوفية إلى البغدادية ثم الأندلسية والمصرية مناقشا المستشرقَ فلوكل والدكتور شوقي ضيف وغَيْرَهما مؤكداً أنّ مصطلح البغداديين حتى القرن الرابع لا يعني إلاّ الكوفيين لأنهم المعنيون بذلك.

لقد حدد في هذا الكتاب رأيه الأخير في هيكل الدرس للنحو العربي وكما يأتي:

١ - النحو منذ نشأته حتى الخليل بن أحمد لم يكن مصطبغاً بصبغة مذهبيه كما ذكرت.

٢ - بعد الخليل اتجه الدرس النحوي اتجاهين وتفرع الى منهجين مختلفي الخصائص:

أ - المذهب البصري الذي اتجه بالنحو في ظل التأثر المنطقي إلى النزعة العقلية في فكرة العامل والقياس العقلي وتحكيمه في قضايا اللغة مما أخرج الدرس النحوي عن حدود منهجه[٢٣]. وكان للقياس سلطة على النحو في القرن الثالث لدى المبرد الذي استعمله في جدله وفي ردّ أساليب وشواهد عربية. وفي القرن الرابع لدى أبي الحسن الرماني الذي خلط النحو بالمنطق[٢٤] ولدى ابن جني القائل: (إنّ مسألة واحدة من القياس أنبل وأنبه من كتاب لغة عند عيون الناس)[٢٥].

ب - المذهب الكوفي الذي نهج نهجاً آخر في تمسكه بالسماع والرواية والنقل محترماً النصوصَ الفصيحةَ المنقولة نقلاً صحيحا وانْ قلّتْ وتغيير القاعدة النحوية على وفق أساليب العربية . وهو منهج أقرب إلى اللغة ودرسها[٢٦]، وقد رأى أنه

---

[٢٣] الدرس النحوي في بغداد ٥٢ ..

[٢٤] نزهة الالباء ٢٣٤ .

[٢٥] الخصائص ٨٨/٢ .

[٢٦] الدرس النحوي في بغداد ٥٦ ..

أقرب إلى المنهج الوصفي (ولعل أقدم فروع الدراسات اللغوية في العالم هي الدراسات الوصفية بل هي كذلك خير ما أنتجه أئمة اللغة في العالم القديم)[٢٧] فكما درس الهنود لغتهم دراسة وصفية كذا درس العرب لغتهم فكان منهج أوائلهم وصفياً وضُحتْ خصائصه لدى الكوفيين.

٣ - الدرس النحوي في القرن الرابع. استمر فيه المذهبان فممن واصل السير على منهج الكوفيين ابن خالويه وابن فارس والمتنبي في شعره. وكل فريق من هؤلاء النحويين التزم بخصائص منهجه ومصطلحاته.

هنا يكمن تعديل المخزومي موقفه من المذهب الثالث البغدادي الذي أكد أنّ تسمية البغداديين، كانت تعني المذهب الكوفي. وأما خلط النحويين في نهاية القرن الثالث وفي القرن الرابع وما بعده بين آراء المذهبين في درسهم ومصنفاتهم فهو لا يعني ظهور مذهب أو مدرسة جديدة في النحو إنما هو استمرار تأثير المذهب الكوفي في النحويين. وبقاؤه بعد القرن الثالث لكن الحكم على النحوي ومنهجه تحدّده خصائص نحوه فإذا كانت أكثر ميلا إلى خصائص المنهج البصري في نزعتها العقلية فهو بصري المذهب وان استشهد بأقوال الكوفيين ولذا يكون من اتخذ طريقة الكوفيين واعتمد آراءهم والمروي عن طريق تلامذتهم واصطنع أوضاعهم ومصطلحاتهم فيسلك في الكوفيين وإنْ وردت لديه آراء من المذهب الآخر[٢٨].

٤ - الدرس النحوي في الآفاق.

تناول فيه : أ - الدرس النحوي في مصر وقد بدأت بواكيره بالوليد بن محمد التميمي الملقب بولّاد وقد رحل إلى البصرة وأخذ علمه عن الخليل وبعودته إلى مصر حفز أهل مصر على الرحلة فرحل ابنه أبو العباس بن ولّاد (ت٣٣٢هـ) إلى بغداد واخذ العلم عن أبي إسحاق الزجاج وغيره وكان معه زميله أبو جعفر النحاس (ت٣٣٧هـ) وكان أبي إسحاق الزجاج معجبا بابن ولّاد وقدرته على الاستنباط. ثم ابن بابشاذ أبو الحسن طاهر بن احمد (ت٤٦٩هـ). إن هؤلاء وغيرهم

---

[٢٧] اللغة بين المعيارية والوصفية ١٧ .

[٢٨] الدرس النحوي في بغداد ١٤٨ .

ممن معهم أو جاء بعدهم على المذهب البصري في نحوهم ونظرهم إلى قضاياه وفي مصنفاتهم[٢٩]. وقد ردّ قول الدكتور شوقي ضيف في اعتباره النحاس ينتمي إلى المدرسة البغدادية لجمعه بين أقوال البصريين والكوفيين وآرائهم في مصنفاته وسلوكه منهجا وسطا جامعا بين الرأيين[٣٠].

كان حكمه على النحوي بحسب ما يغلب على منهجه من خصائص المذهب البصري أو الكوفي. وقد شرح ذلك وكرره في كتابيه مدرسة الكوفة والدرس النحوي في بغداد خاصة.

ب - الدرس النحوي في الأندلس.

تناول انتقال النحو من المشرق إلى الأندلس بواسطة التلامذة الذين أخذوا هذا العلم في ارتحالهم إلى بغداد أو البصرة وهما مع الكوفة أهم مراكز العلم في القرن الثاني للهجرة . وكان النحو في أول عهده كوفياً لدى الأندلسيين نقله جودي بن عثمان (ت١٩٨ه) بعد رحلته إلى بغداد وأخذه على الكسائي والفراء[٣١]. وظل النحو البغدادي (الكوفي) يدرس في الأندلس حتى حمل النحو البصري أي الأندلس دارسون من أوائلهم الافشنيق محمد بن موسى (ت٣٠٧ه) بعد رحلته إلى المشرق وأخذه عن أبي عثمان المازني البصري[٣٢] وغيره. ومن أنشط الداعين إلى المذهب البصري بعد ذلك محمد بن يحيى الرباحي (ت٣٥٨ه) الذي أخذ العلم عن أبي جعفر النحاس في مصر وعند عودته حمل نسخة من كتاب سيبويه. ومن أنبه

---

(٢٩) السابق ١٦٥ .

(٣٠) السابق ١٦٦ . هذا رأيه رحمة الله وان كنت اخالفه بعض الخلاف في المذهب الثالث وهو ان منهجا جديدا ظهر في الدرس والبحث على يد هؤلاء الذين جمعوا بين القولين هذا المنهج لم يكن من قبل وعليه استمر النحو العربي بعد ذلك .

(٣١) السابق ١٧١ .

(٣٢) السابق ١٧٢ ، ١٧٣ .

تلامذة الرباحي أبو بكر الزبيدي (ت٣٧٩هـ) وساد بعد ذلك النحو البصري[٣٣] وانكمش النحو البغدادي (الكوفي) لكنه لم يضمحل حتى ظهر نابضا بالحياة في دعوة ابن مضاء القرطبي (ت٥٩٢هـ) إلى إصلاح النحو في كتابه (الرد على النحاة)[٣٤] وما دعوته إلاّ إلى إصلاح النحو الذي ساد وتضخم على وفق منهج البصريين بصورته التي شاعت في القرن السادس للهجرة مثقلةَ بأثار النوعة العقلية في منهج البصريين من فكرة العامل وما تفرع عنها ثم الإغراق في الاقيسة والعلل وتفريعها و (لم يوجه ابن مضاء إلى الكوفيين ما طعن به على البصريين وهذا ما يشير إلى انه كان نحويا على مذهب الكوفيين)[٣٥].

وبهذا رد فكرة المدرسة الأندلسية والمصرية التي قال بهما الدكتور شوقي ضيف وغيره[٣٦]، كما ردّ اتهامه محاولة إبراهيم مصطفى في إحياء النحو بأنها نقل وأثر من محاولة ابن مضاء قائلا إنما محاولة ابن مضاء (لا تتجاوز الحدود التي رسمها الكسائي والفراء وثعلب من البغداديين (الكوفيين))[٣٧].

٥ - الدرس النحوي عند المتأخرين.

لقد جمد النحو وتوقف نموه وتطوره بعد القرن الرابع وانشغل المتأخرون بشروح الكتب التي سبق تصنيفها فكثرت شروح (الكتاب) سيبويه والتعليقات عليها وشروح المفصل والألفية وغيرها (ولم يعد بين النحاة المتأخرين من كان يعتنق مذهبا أو ينطلق في وعي عن مذهب نحوي بعينه)[٣٨] وغلب على الدرس النحوي التلفيق والجمع بين الأقوال وكذا على تصنيفهم في النحو إذ وقفوا) على كتب نحوية لنحاة سابقين فاحتذوها ولفقوا كتباً ألفوا بها بين الأقوال المختلفة والآراء المتفاوتة

(٣٣) السابق ١٧٤ .. وما بعدها .

(٣٤) السابق ١٧٧ ..

(٣٥) السابق ١٧٩ .

(٣٦) السابق ١٨٠ ...

(٣٧) السابق ٨٥ ، ٨٦ .

(٣٨) السابق ٨٣ .

كالسيوطي في (همع الهوامع) والأزهري في (شرح التصريح على التوضيح) وأمثالها)[٣٩].

٦ - الدرس النحوي في العصر الحديث.

وصل النحو العربي إلى الدارسين المحدثين ركاما ضخماً وخليطاً متناقضاً متنافراً من اتجاهات وآراء وأقيسة وتعليل ووجوه وتقديرات في مصنفات منها الموسوعي الضخم ومنها الموجز المبسط. وفي العصر الحديث بعد إصابة التطور كلَّ شيء وكل ركن في الحياة وكلَّ مجال من مجالات الفكر راح المحدثون (يعيدون النظر في نحو العربية بحيث تتلاءم مع حال اللغة التي لم تعد حوشية ولا بدوية ولكنها عادت لغة متطورة أفادت من اتصالها بالشرق والغرب)[٤٠]. لقد قسّم الدراسات الحديثة إلى قسمين:

احدهما اهتمَ بتاريخ العربية ومدارسها ومناهج النحاة صحِبَهُ عملٌ على إحياء الآثار من الكتب في هذا المجال. فأُلّفت الكتب وكتبت البحوث في المدارس النحوية ومناهج النحاة وكان السابق في هذا العمل جهودٌ للمستشرقين أمثال فايلُ ناشرُ كتاب الإنصاف لابن الانباري ومقدمُهُ بدراسة. وفلوكل ناشرُ كتاب الفهرست لابن النديم ومقدمه بدراسة في المدارس النحوية. وبروكلمان ويوهان فك وغيرُهُمْ ثم كان نشاط الدارسين العرب والكثير منه كان إعادة وأصداء لأحكام القدماء من النحويين أو تأثراً وترجمة لما جاء به المستشرقون وذكر منها دراسات أحمد أمين والدكتور شوقي ضيف وسعيد الأفغاني والدكتور عبد الرحمن السيد وغيرها[٤١].

القسم الثاني : وهو الدراسة الجادة لمادة النحو العربي وإحياء هذا العلم الذي وصل إلى ما ذكرت من التعقيد والضخامة ومَلَلِ الدارسين والمدرسين.

ومن أوائل الدراسات التي ذكرها في هذا المجال دراسة الأستاذ إبراهيم مصطفى في كتابه (إحياء النحو) المنشور سنة ١٩٣٧ وقد وصفها حين قارنها بكتاب

---

[٣٩] السابق ٨٣ .

[٤٠] الدرس النحوي في بغداد ٨٣ وانظر مدرسة الكوفة ٤٥٣ .

[٤١] انظر تفصيل ذلك في الدرس النحوي في بغداد ٨٢ ، ٨٣ .. وما بعدها .

ابن مضاء (الرد على النحاة) راداً قول شوقي ضيف فيها أنها منقولة من محاولة ابن مضاء. قال: كانت محاولة ابن مضاء تهدف إلى هدم النحو المشرقي دون إقامة البديل عنه أما محاولة إبراهيم مصطفى فهي تهدم بالياً وعتيقاً من مناهج النحو وأساليبه وتبني جديداً بديلا عنه[٤٢]. ثم محاولة الشيخ أمين الخولي واقتراحاته في بحثه (الاجتهاد في النحو). هاتان المحاولتان الجادتان اللتان كانتا تهدفان إلى إصلاح النحو وبنائه بناء جديداً على وفق منهج لغوي سليم وقبلها محاولة ابن مضاء وكلها اتفق على استبعاد الفلسفة الكلامية وآثارها والقياس والتعليل المنطقيين وما هو ليس من منهج اللغة وهو ما جعله يؤكد ويتأكد من سلامة منهج الكوفيين الذي استبعد ذلك من قبل[٤٣].

---

[٤٢] السابق ٨٥ ، ٨٦ .

[٤٣] السابق ٤٦٠ ، ٤٦١ .

الأسس البنائية للنحو العربي عند المخزومي

كان المخزومي ينطلق في تصوره الأسس البنائية للنحو العربي من اندفاعه نحو تجديد بنية هذا النحو. وكان وهو يرسم خطوط المناهج النحوية قديما يشغل فكره كيفيةُ إصلاحِ النحو وإعادة تصنيفه ويوازن بين موقف القدماء من اللغة وأوضاعها وتقعيدها وبين ما وصلت إليه الدراسات التي عاصرها والتي نشدت التيسير والإصلاح. وكان يصرح بين حين وحين في الحكم على دراسات المحدثين التي ما زالت تتمسك بالبالي من القديم، ويربط بين الجديد من المناهج والقديم الذي كان يراه أقرب إلى اللغة وطبيعتها وكثيرا ما دار على لسانه هذا السؤال: ما الأسس التي يمكن أن يقوم عليها بناء النحو العربي في خضم هذه التغيرات والتقدم الحضاري الذي أصاب كل جوانب الحياة المعاصرة؟ وعلى الرغم من ميله إلى المنهج الكوفي باعتباره أقرب إلى طبيعة اللغة كان لا يرى فيه المنهج المثالي الذي ينبغي الاقتصارُ عليه. إنما كانت له نواقصه وجوانب قصوره لكنه إذا قورن بالمنهج البصري رَجَحَ عليه بالتزامه بأسبابِ المنهج اللغوي في مجال أسسه التي قام عليها بناؤه وقواعده لكن هذا الترجيح لا يعني (إن النتائج التي توصل إليها الكوفيون صحيحة كلها كما لا يعني أنّ منهجهم في دراسة اللغة سليم كله. فقد كانوا يعتمدون على الملاحظة والتجربة في اللغة العربية نفسها دون أن يلتفتوا إلى ما بين العربية وأخواتها الساميات من وشائج وصلات)[٤٤].

لقد سعى المخزومي إلى اتخاذ منهج وصفي نابع من ترثنا النحوي فهو أفضل المناهج لدراسة اللغة وهو ما وَصَفَ به المنهج الكوفي كما مر ذكره. هذا المنهج

---

[٤٤] مدرسة الكوفة ٤٤٩ .

مستفيد من أهم مبادئ وصفية علم اللغة: وأول هذه المبادئ الذهاب إلى أن اللغة ظاهرة اجتماعية متطورة وقد صرّح به أكثر من مرة في أثناء دراسته. ففي نقده اعتماد البصريين على القياس قال: (إنما يصدرون عن اعتقاد بان اللغة منطقية.. وقد أومأنا إلى أن ذلك خطأ في المنهج لأن اللغة لا تخضع للأحكام العقلية ولا تجري وفق الأسس المنطقية لأنها ليست ثابتة ولأنها ظاهرة حيوية اجتماعية تتطور بتطور الحياة نفسها وتسير وفق قوانين يحدد الاستعمال اتجاهها فهي إذن متغيرة لا تبقى على حال بل التغير من مقومات وجودها. ولولا اعتقادهم بثباتها وعدم تغيرها لما اصطنعوا التأويلات والتقديرات؛ لأن التقديرات إنما تهدف إلى ردّ الكلمة إلى قالبها الذهني المتصوَّر..)[٤٥].

فاللغة إذن ليست منفصلة عن المجتمع. وبهذا فرَّق بين موقفين: أولهما موقف المتكلم المستعمل للغة. وهدفه صحة الاستعمال الذي يجري بحسب المعايير والأعراف. وثانيهما موقف الباحث من اللغة وهدفه وصف المستعمل بمنهج يعترف بتلك المعايير والأعراف[٤٦]. ومع دعوته لاتخاذ المنهج الوصفي وقولِه بتطور اللغة باعتبارها ظاهرة اجتماعية كان يدعو أيضا إلى الاحتفاظ بسلامة هذه اللغة الفصيحة دون النظر إلى مراحل تطور لهجاتها في مجال وضع النحو وتغييره. وهو موقف تقليدي للنحويين عامة.

قد يسأل سائل أين مَوْقِفُه في تيسير النحو وإصلاحه وإيمانُهُ باجتماعية اللغة وتطورها مع المجتمع؟

الجواب يكون في دراسة تراثه في هذا المجال. وبدراسته نجد أنه يؤمن باجتماعية اللغة وتطورها لكنه يؤمن أيضا بثبات فصاحة اللغة والجدّ للمحافظة عليها. وفي هذا المكان تكون نقطة الخلاف بين وصفية منهجه والوصفية باعتبارها منهجا لعلم اللغة الحديث. فوصفيته تنطلق من تراثنا النحوي لدى أوائل النحويين والكوفيين خاصة. فهو دعا إلى إصلاح منهج النحو ولم يَدْعُ إلى وضع نحو جديد

---

[٤٥] الدرس النحوي في بغداد ٥٦ .

[٤٦] انظر اللغة بين المعيارية والوصفية ١٥ ، ١٧ في التمييز بين موقف المتكلم وموقف الباحث .

للغة في كل مرحلة من مراحل تطور لهجاتها؛ فذلك في رأيه يؤدي بالنتيجة إلى تشجيع اللهجات المتطورة عن اللغة الأم ثم إلى ترك اللغة الأم الفصيحة ثابتة مهملة مما يؤدي إلى نسيانها وموتها. وبهذا يحدث الانفصال بين اللغة الأم الفصيحة وما تطور عنها من لهجات كما حدث للاتينية واللهجات التي تفرعت عنها: الايطالية والفرنسية والاسبانية والبرتغالية والرومانية.

فالإصلاح ينبغي أن ينصبَ على مناهج نحو الفصيحة ودراسة الظواهر المتطورة فيها والتي تتصل بها وإهمالُ ما لا يتصل بها. وكان يدعو إلى الإبقاء على استمرار اللغة الفصيحة والحفاظ على سلامتها وتطور هذه اللغة نفسها دون النظر بالدرس إلى لهجاتها المتطور عنها. بهذا وقف من محاولتين لدراسة اللغة رآها تعارض دعوته للإبقاء والحفاظ على فصاحتها ورأى أنهما تُضعفان عربية القرآن الكريم وهما:

١- محاولة الشيخ أمين الخولي في بحثه (هذا النحو)[٤٧] لأنها كانت تدعو إلى مساواة قواعد للفصيحة بما يشيع في كلام الناس على زعم التخفيف من المعاناة واطراد القواعد مثل ترك إعراب الأسماء الخمسة أو الستة بالعلامات المختلفة وإلزامها القصر وكإعراب جمع المذكر السالم بالحركات وإبقائه بالياء دائما والمثنى بالألف دائما وعدم استثناء إعراب جمع المؤنث السالم والممنوع من الصرف من إعراب الأسماء المنصرفة وغير ذلك مما حاول الخولي تخليص المتكلِّم والمتعلِّم من كثرة القواعد والاستثناءات والتقريب من لغة الحياة كما كان يرى في بحثه.

وقف المخزومي من هذه المحاولة موقف الرفض قائلا: (ومحاولة الأستاذ هذه وان كانت تهدف إلى بناء النحو وإعادة الحياة إليه من جديد إلاّ أنها تهدف مع ذلك إلى خلق جديد قد تنقطع بوجوده الأسباب بين لغة الحياة اليومية وبين التراث القديم) (وستؤدي محاولته أيضا إلى فصل الأقاليم العربية وذهاب كل إقليم بلغة

[٤٧] نشر في مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة المجلد السابع ١٩٤٤ .

إقليمية خاصة)[٤٨] وقد وافق من اتهم هذه المحاولة بأنها قد تنشأ بسببها لغة ملفقة لا تشبه لغتنا التي نتكلمها ولا لغتنا الفصيحة[٤٩].

إنّ وضع القواعد الجديدة للهجة المتطورة من الفصيحة يحول بين الفصيحة والتطور فتجمد الفصيحة وتهمل ويكون الاهتمام باللهجة المتطورة وهو ما لايراه.

٢- أما المحاولة الثانية فهي للدكتور محمد كامل حسين في كتابه (اللغة العربية المعاصرة)[٥٠] وقد حاول تغيير النموذج النحوي التقليدي بناء على الاستعمال اللغوي ومستوياته المعاصرة. فقسم في هذا الكتاب مستويات العربية إلى أربعة أقسام هي:

١- الفصحى العالية وهي لغة الأدب الرفيع والخطب والمواعظ والحكم.

٢- الفصحى المخففة وهي اللغة الشائعة بين المثقفين والمتعلمين.

٣- العامية المنقحة وهي تقوم على إحلال وتغيير بعض الأصوات والمفردات وطرق النفي والاستفهام الفصيحة محل ما يقوم مقامها في العامية.

٤- العامية الخالصة.

ويرى الدكتور محمد كامل حسين إنّ الفصحى المخففة هي الجديرة بالدراسة دون الفصحى العالية أو العامية المنقحة. وتنبأ بأنّ هذه الفصحى المخففة هي التي ستنتشر ويكتب لها الذيوع. ودعا إلى دراسة خصائصها ووضع القواعد لها لتنظيمها[٥١].

وقف المخزومي من هذه الدعوى موقفه من سابقتها وبالحجة نفسها. إنّ هذه القواعد الجديدة لغير الفصحى يبعدنا بالنتيجة عن لغتنا لغة القرآن وتراثنا[٥٢].

---

[٤٨] مدرسة الكوفة ٤٦١ ، ٤٦٢ .

[٤٩] مدرسة الكوفة ٤٦٢ .

[٥٠] طبع ١٩٧٦ – دار المعارف القاهرة .

[٥١] انظر اللغة العربية المعاصرة ص٧٠ ، ٨٣ ، ٨٦ ، ٨٨ ، العربية وعلم اللغة البنيوي ٨٥ .

[٥٢] كان موقفه هذا في الحوار الذي أجريته معه في مجلسه ببيته ١٩٩٣/١/٢ .

لهذا دعا إلى نحو جامع بين الاتجاهات المختلفة ليكون جامعا شاملا للغة الفصحى على وفق منهج سليم قال عنه: (المنهج الكوفي معدلا بما وصل إليه الدرس الحديث لأنه منهج يقره النظر العلمي الحديث ويقره النظر اللغوي بوجه خاص)[٥٣].

يقوم هذا المنهج على الأسس الآتية:

١- الإفادة من جهود النحويين الأوائل سواء أكانوا كوفيين أم بصريين وجمع مروياتهم ونقولهم وإعادة النظر فيها باستقراء جديد وتسجيل ما جدّ من ملاحظات وظواهر لغوية.

٢- اعتماد المصادر اللغوية التي اعتمدها الأوائل من النحويين وهي:

أ- القرآن الكريم وقراءاته فهي تمثل اللهجات.

ب- الشعر العربي والنثر وكلام الفصحاء.

هذا الاستقراء للعربية وملاحظة ظواهرها اللهجية المختلفة يوصلنا في رأيه إلى مجموعتين لهجيتين كبيرتين هما:

أ- لهجة قريش وحواضر الحجاز وما والاها من القبائل.

ب- لهجة تميم وأسد وما والاها من القبائل.

هاتان المجموعتان اللهجيتان تمثلان الواقع اللغوي العربي الذي قامت عليه قواعد النحو واتُخذَ مجالاً للاستشهاد والتمثيل وذُكِرَتْ الفروق في الظواهر اللغوية التي نبّه عليها النحويون. فالمجموعة الأولى تمثل لغة الحواضر العربية وهي التي غلبت وكانت بها لغة الأدب. أما المجموعة الثانية فهي لغة البداوة.

٣- توسيع رقعة الاستشهاد بالفصيح من لغة الشعر والنثر زمانا ومكانا. فتحديد النحويين زمانَ الاستشهاد اللغوي ومكانَه حرمه من الحركة ومرونة التفكير ومن إبداع المبدعين في العربية وأساليبها.

---

(٥٣) مدرسة الكوفة ٤٦٦ .

٤- الإفادة من منجزات علم اللغة الحديث وما جد من التقدم في أدوات البحث ووسائله ومناهجه[٥٤].

لقد قام نحو المخزومي على هذه الأسس. ومنهجه فيها وُصِفَ بالوضوح والوعي العميق للتراث النحوي العربي كما اتصف بجمع الخصائص اللغوية للنحو العربي كوفيها وبصريها إلى أهم مبادئ علم اللغة الوصفي الحديث وأقام نظريته عليها ثم تطبيقه في ضوئها.

وإذا أردنا أن نقف على قضية مهمة في نحو المخزومي ينبغي لنا أن نقف عند قضية النظرية النحوية عنده ثم تطبيقه هذه النظرية. وهي ما تعرَض إليه بعض دارسيه وأحسّوا به في تطبيقه فقالوا: إنه لم يتخلص فيه من المعيارية[٥٥] التي نقد بها النحويين القدماء وأكثَرَ المحدثين. ففي نحوه بين ثلاثة أشياء تبدو متداخلة أو متخالفة أحيانا. وليس من اليسير جمعها والوصولُ بها إلى نحوِ ذي منهج منسجم قويم يقف إلى جانب الجديد من الأعمال اللغوية الحديثة.

أول هذه الأشياء: اتخاذه المنهج الوصفي وقوله باجتماعية اللغة وتطورها كأية ظاهرة اجتماعية. فدارسها ينبغي أن ينهج بها نهج الاستقراء والملاحظة (والوصف ويجعل من نواحي الشركة فيما وقع عليه الاستقراء قواعدَ لا يُنْظَرُ إليها باعتبارها معايير يجب إتباعها وإنما تُفْهَمُ باعتبارها تعبيرات عن الوظائف اللغوية تؤديها الوحدات اللغوية التي وقع عليها الاستقراء..)[٥٦].

والشيء الآخر: المحافظة على فصاحة العربية وسلامتها وانّ اهتمام الدراسة النحوية والدارسين يكون في مجال الفصيحة وما يجدّ فيها من ظواهر لغوية دون لهجاتها الحديثة.

أما الثالث: فهو أنَ الغاية من دراسة النحو حفظ اللسان من الخطأ وتَمْرِينُهُ على الفصاحة ليتعرب من السليقة اللغوية؛ لذا انصبّ جهده في تيسير النحو على

---

[٥٤] مدرسة الكوفة ٤٦٤ ، ٤٦٥ ، ٤٧١ .

[٥٥] العربية وعلم اللغة البنيوي ٧٠ .

[٥٦] اللغة بين المعيارية والوصفية ٢٥ .

ذلك ليصل بالنحو إلى غايته التي أسس من أجلها منذ نشأته الأولى ليكون ذا غاية تعليمية وليقوّم اللسانَ في الكلامِ والقراءة ثم القلمَ في الكتابة. واتجهت جهوده صوب غاية التقريب بين لغة الكتابة ولغة الحديث وذلك بتيسير لغة الكتابة للناطقين بلهجات العربية الحديثة المختلفة على وفق ما لدى الجماعات الناطقة بتلك اللهجات؛ لذا قام منهجه الوصفي على الاستقراء والملاحظة وتسجيل الظواهر اللغوية ونسقها في قواعد. وهذه القواعد تتغير بتغير الاستعمال لا العكس. فكأنه جمع بين الوصفية في دراسته علماً مع شيء من المعيارية في نحوه تطبيقا.

بغداد ٣ / ٥ / ١٩٩٣

المخزومي وجهوده في تيسير النحو

تقديم:

هذه مقالة في المرحوم الدكتور مهدي المخزومي وجهوده في تيسير النحو العربي.

هذا العلْمْ الذي نشأ في وقت مبكر ليضع ضوابط للعربية بعد ما شاع اللحن على ألسن الناطقين بها. فأول من وضع هذه الضوابط أبو الأسود الدؤلي المتوفى ٦٨ هـ بوضعه "نقط الإعراب" يضاف إلى ما وضعه من بدايات القواعد بإشارة من الإمام علي بن أبي طالب كما روت الأخبار وكتب الطبقات، ثم مرَّ الزمن وتلك الأنظار النحوية تتطور وتتسع حتى إذا وصلنا إلى عصر الخليل بن احمد الفراهيدي المتوفى سنة ١٧٥ه وجدنا النحو علماً قائماً على أسس منهجية في اللغة. فالخليل أقام هيكل النحو على أسسه في "الكتاب" الذي نسب إلى سيبويه، ومادته عبارة عن محاضرات الخليل واملاءاته مع بعض إملاءات يونس النحوي المتوفى سنة ١٨٢ه ضمَنها سيبويه "الكتاب". وقد نظَم سيبويه هذه المادة وتلك الإملاءات في أبواب بعد وفاة الخليل فكان هذا الكتاب الذي تناقلته الأجيال وتدارسته حتى يومنا هذا. وظل "الكتاب" مدار بحوث النحويين ومصنفاتهم وشروحهم لم يحيدوا عنه. وبعد القرانين الرابع والخامس الهجريين اتسع علم النحو باتساع النحويين في عللهم وأقيستهم وخلطهم مناهج الفقه والمنطق في منهج النحو بتأليف الموسوعات من الشروح وشروح الشروح حتى قال قائل في نحو المتأخرين: إنَ النحو علم نضج واحترق. وكانت في تاريخ النحو محاولات لتيسيره قديمة بوضع المتون السهلة والموجزة الخالية من اختلاف الوجوه الإعرابية وتعددها والخالية من الشواذ والأقيسة عليها مثل كتاب "الجمل" للزجاجي و"اللمع" لابن جني و"الواضح" لأبي بكر الزبيدي و"التفاحة" لأبي جعفر النحاس وغيرها لكن هذه المتون كَنها تعتمد الأساس النظري الذي قام

عليه هيكل النحو منذ القرن الثاني وما بعده في اعتماده على فكرة العامل والعمل. وأهم محاولة لتيسيره والدعوة إلى دراسته بمنهج جديد يبتعد عن فكرة العامل وتحكيمها في النحو هي محاولة ابن مضاء القرطبي المتوفى سنة ٥٩٢هـ إلا أنّ هذه المحاولة كانت نظرية دون أن يكون لها جانب تطبيقي؛ لذا أهملها عصره وظل النحو جاريا في مجراه حتى إذا وصلنا إلى العصر الحديث وارتفع صوت النهضة في مجالات العلوم والآداب كانت محاولات للنهوض بالدرس النحوي أيضا. وأبرز هذه المحاولات محاولة إبراهيم مصطفى في كتابه "إحياء النحو" الذي ظهر سنة ١٩٣٧م لكّن هذه المحاولة لم يعضدها صاحبها بكتاب في تطبيقها وإنما كانت محاولة تطبيقها في نهاية العقد السادس وبداية السابع من هذا القرن الميلادي على أيدي مدرسين للعربية تربوا على الفكر النحوي القديم وأسس النظرية؛ لذلك أخفقت هذه المحاولة وأعقبت ردة فعل أضرت بجوهرها. وبعد محاولة إبراهيم مصطفى كانت محاولة المخزومي التي تحدثت عنها في هذا البحث فقد جعلها في كتابين: احدهما نظري هو (في النحو العربي نقد وتوجيه) أثبت فيه أسسها ومقوّماتها ونقده النحو المقام على أساس فكرة العامل. وقد أفاد من منابع النحو الأولى عند الخليل والكسائي المتوفى ١٨٩هـ والفراء المتوفى ٢٠٧هـ؛ لأن هؤلاء أقاموا نحوهم على الاستقراء والنظر من واقع اللغة ومن خلال متكلميها ثم الإفادة من تطور الدراسات اللغوية الحديثة ومحاولة الخروج بمنهج لدرس النحو العربي وتدريسه يخلو من الأسباب التي أدت إلى تعقيده في تاريخه الطويل.

أما الكتاب الآخر فهو (في النحو العربي-قواعد وتطبيق) وبهذا الكتاب حاول المخزومي أن يطبق الأسس النظرية التي وضعها في كتابه الأول وقد أكثر من التمارين التطبيقية التي تسهّل على الدارسين والمدرسين ما وجدوه صعبا معقدا في كتب النحو وموسوعاته القديمة أو التي ألّفت على غرارها.

أرجو أن أكون قد وفقت في بسط هذه المحاولة ومن الله التوفيق

جهود المخزومي في تيسير النحو

يتفرع الحديث عن جهود المخزومي في الدرس النحوي إلى فرعين: أحدهما يتصل بالآخر اتصالا وثيقاً: فأولهما اطلاع المخزومي على الدرس النحوي القديم واستيعابه ووعيه وعي عالم مجتهد فيه لا وعي مدرس يردد أقوال السابقين[٥]. من هنا تظهر مقدرته على توجيه الدرس النحوي بصورته التي رآها ومباحثه في النحو العربي. وهذا يؤدي إلى الفرع الثاني من الحديث وهو جهده في تيسير النحو.

وعيه التراث النحوي: النحويون في تأريخ النحو العربي قسمان: قسم علماء في النحو مجتهدون. فهؤلاء أصحاب تنظير في تعقيدهم اللغوي، وذوو منهج في تطبيق نظرهم فلهؤلاء أثر في تلامذتهم وحلقات دروسهم منهم الخليل بن أحمد الذي ألّف سيبويه "الكتاب" بعلمه وإملاءاته ثم الكسائي والفراء وثعلب والمبرد وابن مضاء القرطبي.

هؤلاء من القدامى، ونستطيع أن نذكر من المحدثين إبراهيم مصطفى والمخزومي وتمام حسان. أما القسم الآخر فهم مدرسون للنحو على اختلاف قدراتهم ومنازلهم منهم شراح كتاب سيبويه كالرماني والسيرافي، ومؤلفو المتون التعليمية كالزجاجي وابن جني وأبي بكر الزبيدي وكذلك شراح هذه المتون ثم الدائرون في فلك كتاب سيبويه لكنهم بوّبوه تبويبا جديداً كالزمخشري في مفصله وابن مالك في الفيته ثم شراحهما. ومن المحدثين نذكر المرحوم عباس حسن والغلاييني وغيرهما كثير..

إنّ المخزومي من علماء النحو المجتهدين في عصرنا. كانت له محاولة في تيسير النحو بنى أسسها على معرفة واطلاع واع لتراث النحو العربي إذ لم تكن قراءته للتراث قراءة مستهلكة كما هي قراءة الكثير الكثير ممن عنوا بهذا العلم على امتداد تاريخ النحو العربي الذين أعادوا ما قاله سابقوهم وكرروه في كتبهم ومباحثهم ولم

تكن قراءته قراءة ناقدة فقط تكتفي بنقد النموذج وتحاول تحطيمه دون وضع البديل الناضج أو اقتراحه كما هو الغالب على قراءة ابن مضاء القرطبي في رده على النحاة إنما كانت قراءة المخزومي قراءة إبداعية فيها خلق ومحاولة تجديد(٦). والى جانب هذه القراءة الواعية للتراث النحوي كان على اطلاع بشكل وبآخر على قضايا علم اللغة الحديث ومناهجه من خلال مواكبته محاضرات المستشرقين حين كان في القاهرة ومن خلال محاضرات أساتذته الذين كان لهم شأن في الدراسات النحوية واللغوية كإبراهيم مصطفى وأمين الخولي بل حتى موجة التحديث التي كان الدكتور طه حسين دافعا من دوافعها وقد أشار إلى هذا الاطلاع والى اقتراب مفهومه للدرس النحوي من مفهوم علم اللغة الحديث بعض دارسي محاولته فهو "مفهوم إذا نظرنا إليه بصورة عامة وجدناه يقترب إلى حدّ ما من تصور علماء اللغة المحديثن للدراسة العلمية للغة وخاصة فيما يتعلق بطبيعة العلاقات بين مستويات التحليل اللغوي وتداخلها وكذا طبيعة كل مستوى منها وموضوعه... مما يدل على إن الدكتور المخزومي قد اطلع بصورة أو بأخرى على الفكر اللغوي الحديث؛ لأن علماء العربية القدماء رغم دراستهم للجوانب الصوتية والصرفية النحوية والدلالية لم يكن لديهم هذا التصور الواضح لمنهج الدراسة اللغوية"(٧).

محاولته في تيسير النحو: لقد مثل محاولته هذه كتابان له هما:

١- في النحو العربي – نقد وتوجيه.

٢- في النحو العربي – قواعد وتطبيق.

١- أما كتابه الأول فقد عرضت مباحثه أسساً نظرية للدرس النحوي وما ينبغي أن يكون عليه بدءاً بتعريفه للنحو ووظيفة النحوي وانتهاء بدراسته لأساليب التعبير التي هي من صميم الدرس النحوي وكانت كتب النحو تبعدها عن هذا الدرس ليتضمنها علم المعاني باعتباره قسما من أقسام البلاغة لكن المخزومي جعل هذا القسم جزءا مهما في الدرس النحوي كما كان عبد القاهر الجرجاني ينظر إلى معاني النحو وأهميتها في فهم نظم الكلام والتراكيب في كتابه (دلائل الإعجاز).

عرَف المخزومي النحو بأنه "عارضة لغوية تخضع لما تخضع له اللغة من عوامل الحياة والتطور، فالنحو متطور أبداً لأن اللغة متطورة أبداً. والنحوي الحق هو ذلك الذي يجري وراء اللغة يتبع مسيرتها ويفقه أساليبها ووظيفة النحوي أن يسجل لنا ملاحظاته ونتائج اختباراته في صورة أصول وقواعد تمليها عليه طبيعة هذه اللغة، واستعمالات أصحابها وأن يصف لنا مثلاً ما يطرأ على الكلمة أو الجملة وأوضاعها المختلفة.."(٨).

هذا التعريف للنحو وتحديد وظيفة النحوي لا نجدهما لدى أحد من القدامى وإن كنا نجد تطبيقها لدى الأوائل من النحويين من أمثال الخليل والكسائي والفراء، لكن مدرسي النحو القدامى والمحدثين جعلوا من النحو قيودا قاسية وأقوالا وقواعد متداخلة ملبسة في كثير من الأحيان لا تؤدي إلى تربية اللسان على الفصاحة إنما تؤدي إلى شحن الحافظة بالقواعد النظرية والخلافات في التعليل والأقيسة التي يطبعها المنطق بطابعه وهو منهج غريب عن منهج اللغة كما كان يراه ويراه أيضا أصحاب المنهج الوصفي.

أما تيسير هذا العلم الذي ضج من صعوبته الدارسون والمدرسون فهو في رأيه:

"ليس اختصارا ولا حذفا للشروح والتعليقات ولكنه عرض جديد لموضوعات النحو ييسَر للناشئين أخذها واستيعابها وتمثلها ولن يكون التيسير وافيا بهذا ما لم يسبقه إصلاح شامل لمنهج هذا الدرس وموضوعاته أصولا ومسائل، ولن يتم هذا فيما أرى -إلاّ بتحقيق هاتين الخطوتين:

الأولى: أن نُخلَص الدرس النحوي مما علق به من شوائب جرها عليه منهج دخيل هو منهج الفلسفة الذي حمل معه إلى هذا الدرس فكرة (العامل).

والثانية أن نحدد موضوع الدرس اللغوي ونعين نقطة البدء به ليكون الدارسون علي هدى من أمر مايبحثون فيه"(٩)

لقد أقام مباحثه في كتابه هذا على هذين الأساسين. وحاول في نقده أعمال النحويين ومناقشة أقوالهم وآرائهم أن يسقط فكرة العامل النحوي التي تسربت إلى الفكر النحوي من منهج دخيل على النحو فإذا أسقطت فكرة العامل توجه الدارس

إلى التركيب اللغوي يستخلص معناه من إدراكه وظائف المفردات التي تركب منها دون أن ندخل في تفكيرنا ما لا يوصلنا إلى إدراك التركيب إدراكا سليما وأهم أهداف النحو هو الوصول إلى إدراك المعنى في التركيب.

أما محاولته لتحديد موضوع الدرس النحوي فهي في إعادة ما فقده النحو وما اقتطع منه من دراسة أدوات التعبير التي كان النحاة قد أسقطوها من حسابهم وقطّعوها تقطيعاً"(١٠)

وقد حدد موضوعين مهمين ينبغي للدرس النحوي أن يعالجهما وأهمل النحويون معالجتهما وهما في نظره " يمثلان وحدة دراسة لا تجزئة فيها:

الموضوع الأول: الجملة من حيث تأليفها ونظامها ومن حيث أجزاؤها ومن حيث ما يطرأ على أجزائها في أثناء التأليف من تقديم وتأخير ومن إظهار وإضمار.

الموضوع الثاني: ما يعرض للجملة من معان عامة تؤديها أدوات التعبير التي تستخدم لهذا الغرض كالتوكيد وأدواته والنفي وأدواته والاستفهام وأدواته إلى غير ذلك من المعاني العامة التي يعبر عنها بالأدوات والتي تمليها على المتكلمين مقتضيات الخطاب ومناسبات القول"(١١)

لقد بنى نقده أعمال النحويين وتوجيهه الدرس النحوي الوجهة التي رأى صوابها وصحتها على هذه الأسس، وعلى هذا الوضوح في التفكير والدقة في التوجيه والتعبير؛ لذلك نجد الجملة وما تتراكب منه وأنواعها أول مباحث الكتاب ثم عالج حركات أواخر الكلم التي جعلها النحو القديم آثاراً لعوامل ثم اضطروا إلى إيجاد العلل والتقديرات والتأويلات ويديرون مباحثهم حول فكرة العامل. حاول المخزومي أن يتأثر مباحث شيخه إبراهيم مصطفى في (إحياء النحو) ويزيد عليه وضوحاً. فالعربية لغة معربة والإعراب من خصائصها وللإعراب ثلاث علامات: الضمة والفتحة والكسرة ولهذه العلامات معان في أواخر الأسماء المعربة دون الأفعال.

والكلمة تنقسم إلى قسمين رئيسين: المعرب والمبني "والمعرب هو الاسم أما المبني فهو الفعل والإشارة والأداة"(١٢) وفسر الرفع والنصب والخفض الذي في الأسماء

بعلامات ذات معان" فالضمة علم الإسناد دالة على أن الكلمة مسند إليه أو تابع للمسند إليه"[١٣] والمرفوعات الأصول هي المبتدأ والفاعل والنائب عن الفاعل ثم التوابع لها وأما الخفض فعلامته الكسرة وهي علم الإضافة تكون للمضاف إليه أو التابع للمضاف إليه وذلك أقره النحويون جميعا. والإضافة إما أن تقع بعد حروف بعينها سماها النحويون حروف الجر والكوفيون سموها حروف الإضافة وإما أن يكون المضاف إليه بعد اسم ففي كل الأحوال يكون حق المضاف إليه الكسر.

وأما النصب فعلامته الفتحة وهي ليست علما لشيء وإنما تعطى لكل ما ليس في موضع الإسناد ولا في موضع الإضافة فهي الحركة الخفيفة التي كانت اللغة تستعملها لكل كلمة خارجة عن نطاق الإسناد أو الإضافة" ويندرج في هذا موضوعات كثيرة كالحال والتمييز والمفاعيل وغيرها"[١٤] وكان للتحليل والفراء أقوال تشير إلى هذه الحركة الخفيفة التي كان العربي يهرع إليها ما وجد إلى الخفة بديلا"[١٥].

على هذه الأسس الواضحة والتفكير البعيد عن التعقيد تستمر مباحثه في كتابه حين تناول الفصل وأنواعه وأفعال الكينونة أو الوجود وصور استعمالها كل ذلك بعيد عن فكرة العمل والعامل التي أدار النحويون عليها مباحثهم ومصنفاتهم وهذا الموضوع الأول الذي حدده. وللدرس النحوي أن يهتم به وهو الجملة من حيث تأليفها ونظامها.

أما الموضوع الثاني فهو ما يعرض للجملة من معان تؤديها أدوات وقد تمثَّل في دراسته أساليب التعبير. وهذا يثير قضية مهمة ينبغي لنا أن نلفت النظر إليها وهي قضية صحة الجملة نحويا وفصاحتها بلاغيا. فالنحويون اهتموا بصحة الجملة ودارت مباحثهم حولها ولم تتعدها وهي أصغر وحدة تركيبية ذات معنى دارت عليها مباحث النحو. أما البلاغيون فنظروا إلى فصاحتها ووضعوا شروطا لهذه الفصاحة. والصحة النحوية والفصاحة البلاغية يلتقيان في هدف واحد فالجملة الصحيحة تتوافر فيها شروط الفصاحة والفصيحة هي الصحيحة ، وهذا هو الجزء الذي أبعده النحويون عن مباحثهم واهتم به البلاغيون وهو يدخل في صميم النحو.

لقد دعا إلى إعادته للدرس النحوي إبراهيم مصطفى نظريا ودعا إليه المخزومي نظريا وطبقه عمليا بدراسته أساليب التعبير[١٦]. قدم لهذه الدراسة بمقدمة تحدث فيها عن انتباه قلة من النحويين إلى حال المخاطب والإشارة إلى مراعاتها مثل عبد القاهر الجرجاني في (دلائل الإعجاز) والزمخشري في (المفصل) والرضي في شرحه كافية ابن الحاجب وإشارتهم تلك لا تختلف عن معالجة الخطيب القزويني في كتاب "الإيضاح" لموضوع التوكيد في ما يكون بين المتكلم والسامع من علاقة تقتضي أن يراعي المقال مقتضى الحال[١٧].

أما أدوات التعبير في العربية على اختلافها فهي "تتألف منها طوائف تشترك كل طائفة منها في معنى خاص تؤديه ولا يعني اشتراك الطائفة الواحدة في المعنى الخاص أن أدواته كلها بمنزلة واحدة من حيث الأصالة في تأدية ذلك المعنى، فبعضها أصل.. وبعضها تضمن معنى الأصل فأدى وظيفته وان كان له قبل تضمنه معنى الأصل معنى آخر واستعمال آخر ووظيفة أخرى يؤديها في أثناء التأليف"[١٨] وكان النحاة يدركون هذا ويعرفون ما كان أصلا وما كان متضمنا لمعنى الأصل ولكنهم لا يدرسونها في ضمن أساليب التعبير التي تؤديها كأن يدرسون أدوات النفي مجتمعة في أسلوب النفي وأدوات التوكيد في أسلوب التوكيد وكذلك أدوات الاستفهام وأدوات الشرط... الخ، لكنهم كانوا مقيدين بفكرة ما تؤديه هذه الأدوات من عمل فقسموا أبواب النحو على وفق فكرة العامل، فدرسوا (ليس وما ولا وإن ولات) وكلها أدوات نفي في موضوع الأفعال الناقصة وما يلحق بـ (ليس) في العمل باعتبار أنَ عملها واحد وهو رفع الأول ونصب الثاني ثم درسوا (لم ولما ولن) في ضمن جزم الفعل المضارع ونصبه ولم يهتموا بالصور الأخرى للنفي لأن ذلك لا يعنيهم فما كان يعنيهم هو تصورهم العمل والأثر الذي يكون لتلك الأدوات؛ لذلك وقع الخلط لدى النحويين في جمع جملة من الأدوات المختلفة التي تصوروا وحدة عملها فجمعوا بين إنَ وأنَ "ومعناها مختلف ووظيفتهما مختلفة فـ (إنَ) أداة توكيد و (أنَ) أداة وصل أو موصول حرفي ولا دلالة لها على التوكيد البتة و (إنَ) تقع في صدر الجملة و (أنَ) تقع في أثنائها وليس هناك من جامع يجمعهما"[١٩] وكذا جمعهم

بين (لم و إنْ) كما يجمعون بين أساليب مختلفة كجمعهم أسلوب التوكيد بالقصر والحصر مع أسلوب الاستثناء...

لقد درس ستة أساليب للتعبير جمع في كل أسلوب منها أدواته التي يؤدى بها وصوره المختلفة. وهي أساليب التوكيد والنفي والاستفهام والجواب والشرط والنداء[٢٠]. ثم ختم كتابه هذا بدراسة أدوات الوصل في العربية مبينا مواضع استعمالها ووظيفتها اللغوية مصنفا إياها صنفين: فالأول الأدوات التي يليها المفرد وهي:

أدوات الإضافة وهي ما سماها النحويون حروف الجر، و (أيّ) المستعملة في نداء ما فيه (ال) نحو: يا أيها الرجل. وأما الصنف الثاني فهي الأدوات التي يليها جملة وهي (ما و أنْ) المصدريتان على قول النحويين فهما لا يليهما إلاّ الجمل الفعلية في أغلب الاستعمالات و (أنّ) التي تليها الجملة الاسمية و (الفاء) الرابطة لجواب الشرط وهي تربط جملة الجزاء الجزء الثاني من جملة الشرط بالجزء الأول منها.

"وهكذا وجد الدكتور مهدي المخزومي لكثير من مشكلات النحو حلولا سهلة خالية من التعسف الذي ارتكبه النحاة في سبيل طرد نظرية العامل قياساً على العوامل الطبيعية فألزموا الناس قواعد هي من نتاج النظر العقلي وحده. وأهملت الحلول اللغوية التي هي أجدر بالرعاية في المباحث اللغوية ولذلك تعقدت مسائل النحو وصعب على المتعاطي لها"[٢١].

٢- كتابه الثاني:- (في النحو العربي – قواعد وتطبيق):

هذا الكتاب هو الجانب التطبيقي لنظريته في تيسير النحو العربي وفي هذا الكتاب "رسم منهج كتاب جديد للنحو المدرسي مهذب جامع لأصوله وأبوابه تطبيقا على ما رسمه كتابه (نقد وتوجيه) وسيكون الكتاب خاليا من النظريات التعسفية وما بني عليها من أبواب معقدة كنظرية العامل وبابي الاشتغال والتنازع ونائب الفاعل وأمثال تلك الأبواب التي وجد لها المؤلف حلولا لغوية سهلة لا

تحتاج إلى النظر الفلسفي ولا القياس المنطقي"[٢٢].. وهذا الكتاب أقرب منهجا وأيسر سبيلا للمتأدبين والمثقفين الذين يطلبون معرفة النحو العربي للاستفادة منه في القراءة والكتابة فضلا عن طلاب المعاهد والكليات"[٢٣].

لقد حاول في هذا الكتاب أن يقارب بين الدرس النحوي والمنهج اللغوي الحديث، فبدأ بشيء من الدرس الصوتي بذكر ترتيب حروف الهجاء في العربية هجائيا وصوتيا ثم تحدث عن أهمية دراسة الأصوات إذ عليها يتوقف فهم كثير من الظواهر اللغوية كالإبدال بأنواعه والإدغام وما يتصل به من فهم خصائص الأصوات مخارجها وصفاتها من همس وجهر وإطباق وانفتاح وغير ذلك.. ثم ثنى بالمستوى الثاني الصرفي بدراسة بنية الكلمة لأنها تتألف من المادة الصوتية، فتحدث عن بناء الكلمة في العربية وذكر أنّ البناء الغالب في العربية هو الثلاثي في الأسماء والأفعال أما الكنايات والأدوات فتقل أصولها أحيانا وقد تكون على حرف واحد.

أما أقسام الكلم فقسمها إلى أربعة أقسام هي:

١- الاسم ٢- الفعل ٣- الأداة ٤- الكناية

واشتملت الكناية على الضمائر والفاض الإشارة والموصول بجملة وكلمات الاستفهام والشرط[٢٤].

ثم قسم الأفعال إلى أربعة أقسام: الماضي والحاضر والدائم والأمر[٢٥]

كذلك قسم الجملة إلى ثلاثة أقسام: الاسمية والفعلية والظرفية[٢٦] فالاسمية ما كان المسند فيها اسماً مثل: محمد حاضر. والفعلية ما كان المسند فيها مثل: قام محمد ومحمد قام. وبهذا ساوى بين الجملتين السابقتين واخذ بإجازة تقديم الفاعل على فعله وقد ضعفه البصريون. وأما الظرفية فهي التي يكون فيها المسند ظرفا أو مضافا إليه بأداة مثل: عندك درهم وأمامك صعاب.

حاول في هذا الكتاب أن يكثر من التطبيق على كل موضوع من الموضوعات السابقة مرتبا إياها: المرفوعات ثم المخفوضات ثم المنصوبات.

أما التوابع فهي عند النحويين خمسة: النعت والتوكيد والعطف والبدل والعطف عندهم قسمان: عطف البيان وعطف النسق. وقد جعلها المخزومي في قسمين هي:

النعت والبيان وجمع في البيان التوكيد والبدل. وأما العطف فقد أخرجه من التوابع لأن المعطوف يكون له ما للمعطوف عليه وأدواته الواو والفاء وثم وهي أدوات تشرك ما قبلها وما بعدها في حكم واحد. فالثاني إذن ليس تابعا للأول في الإعراب وإنما يكون له ما للأول من الإعراب لأن شريكه لا تابع له.[٢٧] أما التابع الثالث لديه فهو خبر المبتدأ إذا كان وصفا له في المعنى أو كان هو والمبتدأ كأنهما شيء واحد نحو: الأدب مرآة المجتمع[٢٨].

وقد درس هنا ستة من أساليب التعبير مع تطبيقاتها هي: السؤال والجواب والاستثناء والقصر والتعجب والنداء. ذكر معنى الأسلوب ثم تحليل العبارات أو النصوص منه.

كما خصص في نهاية الكتاب اثنتي عشرة صفحة "للإعراب في التطبيق وهي نماذج في إعراب الجمل وتحليلها إجمالا وتفصيلا".

هذا الكتاب فيه تيسير لمادة النحو لطلبة العربية فهو منهج تعليمي ميسّر حاول فيه المخزومي أن يبعد الخلافات النحوية التي شغلت النحويين كما حاول فيه أن يسقط فكرة العمل والعاملِ وآثارها من التعليلات والتقديرات البعيدة التي عقدت النحو وأعجزت دارسيه ويمكن أن تنطلق الدراسات والبحوث التي تعنى بتيسير النحو من هذا المجال الذي فتحه المخزومي بكتابه المذكور وقبله إبراهيم مصطفى في كتابه (إحياء النحو) لكن تجربة المخزومي امتازت على سابقه بالنضج من جهة ثم بالتكامل من جهة أخرى إذ جعل دراسته بجزأين أولهما تنظير وإعادة نظر في القضايا والمسائل والأبواب وعودة إلى الأصول الأولى التي اعتمدت الاستقراء ومشافهة الأعراب كما اعتمدت مصادر العربية الفصيحة ودرستها بمنهج لغوي لم تشبه ملامح الفلسفة والمنطق ولم يخض في آفاقها العقلية ثم حاول أن يفيد من مختلف المناهج لهذا الدرس فاخذ من البصريين الأوائل خاصة ما رآه مناسبا صائبا ومن الكوفيين في دراساتهم القرآنية دراسة لغوية ثم ما أفاده من الدرس اللغوي الحديث. وبوعيه واجتهاده استطاع أن يبلور منهجا وصفيا يعدّ امتدادا ناضجا لمنهج الخليل والكسائي والفراء. فإذا وصفنا منهجه بالوصفي نعني المنهج الوصفي المتطور من

منهج الأوائل من البصريين والكوفيين وذلك الذي دعا إليه نظريا من القدامى ابن مضاء القرطبي المتوفى٥٩٢ه في كتيبه (الرد على النحاة). وبهذا يمكننا أن نرد نقد الدكتور حلمي خليل(٢٩) الذي حاول أن يوازن بين منهج المخزومي ومناهج علم اللغة الحديث خصوصا المنهج الوصفي منها. فالمقارنة غير واردة هنا لأن منهج المخزومي امتداد ناضج للمنهج اللغوي في تراثنا النحوي لدى النحويين الأوائل إضافة إلى ما أفاده من اطلاعه على مقولات علم اللغة الحديث في عصره ودخول بعض مصطلحاتها وأفكارها في كتابيه المذكورين.

١/ شهر رمضان المبارك /١٤١٨هـ

٢٩/١٢/١٩٩٧م

هوامش البحث

(1) انظر مقالة " المخزومي الانسان " للدكتور عبد الجبار المطلبي – القاها في حفل اربعينية المخزومي في مقر اتحاد الادباء ببغداد ١٩٩٣م

(2) مقدمة السقا لكتاب " في النحو العربي – نقد وتوجيه " ص ٦،٥

(3) انظر مقالة الدكتور المطلبي " المخزومي الانسان "

(4) السابق

(5) ويتمثل هذا الاطلاع وهذه المعرفة في كتبه:

أ ـ الخليل احمد الفراهيدي – اعماله ومنهجه

ب ـ مدرسة الكوفة ومنهجها في اللغة والنحو

جـ ـ الدرس النحوي في بغداد

د ـ من اعلام النحويين

هـ ـ عبقري من البصرة

(6) انظر تفصيل ذلك في بحثنا (قراءة في تراث المخزومي) المنشور في مجلة معهد المخطوطات العربية العدد ٣٨ سنة ١٩٩٤

(7) العربية وعلم اللغة البنيوي- د. حلمي خليل

(8) في النحو العربي – نقد وتوجيه ١٩

(9) السابق ١٥، ١٦

(10) نفسه ١٦، ١٧

(11) السابق ١٧ ، ١٨

(12) السابق ٦٩

(13) السابق ٧٠

(١٤) السابق ٨١

(١٥) السابق ص٨١.. ومابعدها

(١٦) انظر تفصيل ذلك في كتابه في النحو العربي - نقد وتوجيه ص ٢٢٥.. ومابعدها وكذا كتابه الثاني في النحو العربي - قواعد وتطبيق ٢٠١.. ومابعدها

(١٧) في النحو العربي - نقد وتوجيه ٢٢٦ - ٢٢٩

(١٨) السابق ٢٣٠ ، ٢٣١

(١٩) السابق ٢٣٢

(٢٠) السابق ٢٣٤ - ٣١١

(٢١) هذه شهادة الاستاذ مصطفى السقا في مقدمته كتاب (في النحو العربي - نقد وتوجيه، ص٩

(٢٢) مقدمة السقا لكتاب : في النحو العربي - قواعد وتطبيق ص١١

(٢٣) السابق ٧

(٢٤) في النحو العربي - قواعد وتطبيق ٤٦

(٢٥) السابق ٢١ - ٢٥

(٢٦) السابق ٨٦ ، ٨٧

(٢٧) السابق ١٩١

(٢٨) السابق ١٩٩

(٢٩) انظر ذلك في كتابه (العربية وعلم اللغة البنيوي ٧٢ - ٨٠

النظرية النحوية بين المخزومي وتمام حسان[1]

تمهيد:

تسلّم القرن الرابع عشر الهجري العشرين الميلادي نظرية النحو العربي قائمة على فكرة العمل والعوامل النحوية مع تقديراتها وتأويلاتها ومع كل التراث الضخم المؤلف منذ الكتاب الأول المقترن بسيبويه. وفي النصف الأول من القرن العشرين بدأت ثمار النهضة العلمية تظهر بظهور المدارس الحديثة والجامعات في مصر والشام والعراق وغيرها من الأقطار العربية. وفي مجال النحو تصاعدت دعوات تيسيره وإصلاح مناهجه في ثلاثينيات القرن فظهرت كتابات إبراهيم مصطفى وقرارات وزارة المعارف المصرية إلى جانب دعوات إصلاح مناهج التعليم والأدب والعلم والأخذ بالسبل الحديثة في الحياة والعلم والأدب وغيرها.

لقد اتخذت دعوة إصلاح النحو اتجاهين: أولهما إصلاح الكتاب النحوي واستمرار المنهج القديم وهو تيسيره بالشرح وتوضيح قواعده واختصارها. فكانت أعمال مثل النحو الواضح لعلي الجارم ومصطفى أمين وغيره.

أما الاتجاه الآخر فهو الدعوة إلى إصلاح مناهجه وقد اتصلت هذه الدعوة في مبدئها بدعوة ابن مضاء القرطبي المتوفى ٥٩٢هـ في كتابه "الرد على النحاة" والتي تدعو إلى إلغاء فكرة العامل والقياس المنطقي وإقامة النحو على أسس جديدة تتصل بمنابعه الأولى. فصدر في هذا المجال كتاب "إحياء النحو" لإبراهيم مصطفى سنة ١٩٣٧ بتقديم طه حسين، ثم أصدر شيخنا الدكتور شوقي ضيف تحقيقه لكتاب

[1] نشر هذا البحث في جريدة الأديب الأسبوعية العدد الخاص للمخزومي ٢٠٠٦.

"الرد على النحاة" سنة ١٩٣٧، وبهذين العملين ختم النصف الأول من القرن العشرين.

واستمر الاتجاهان المذكوران في النصف الثاني من القرن لتيسير النحو فظهر في الاتجاه الأول كتاب "دراسات في قواعد اللغة العربية" للشيخ مهدي مطر بأربعة أجزاء كان يدرس في كلية الفقه في النجف ونشر عباس حسن كتابه "النحو الواقي" والدكتور فاضل السامرائي كتابه "معاني النحو" في هذا الاتجاه وظهر في الاتجاه الثاني إصلاح المنهج أعمال الدكتور مهدي المخزومي وأحمد عبد الستار الجواري وتمام حسان.

نموذج المخزومي:

ما يهمني هنا نظرية النحو لدى المخزومي وتمام حسان، وبما أن المخزومي سبق تمام حسان في نموذجه النحوي فسأبدأ به.

عرض المخزومي تصوره للنحو في كتابين هما:

١- في النحو العربي - نقد وتوجيه - صدر سنة ١٩٦٤.

٢- في النحو العربي - قواعد وتطبيق - صدر ١٩٦٦.

ففي (نقد وتوجيه) عرض الأسس النظرية لنموذجه بدءاً بتعريفه النحو بأنه علم النظم أو التأليف وهو "عارضة لغوية تخضع لما تخضع له اللغة من عوامل الحياة والتطور.." وانتهاءً بدراسته أساليب التعبير في اللغة التي هي- كما يرى من صميم الدرس النحوي وكانت كتب النحو القديمة أبعدتها عن هذا الدرس يتضمنها علم المعاني باعتباره قسماً من أقسام البلاغة لكن المخزومي جعل هذا القسم جزءاً من الدرس النحوي كما كان عبد القاهر الجرجاني ينظر إلى معاني النحو وأهميتها في فهم نظم الكلام والتراكيب في كتابه "دلائل الإعجاز"

إن تيسير النحو لدى المخزومي ليس اختصاراً ولا حذفا للشروح والتعليقات ولكنه عرض جديد لموضوعات النحو وإنما التيسير إصلاح المنهج النحوي وموضوعاته أصولاً ومسائل ويرى أن هذا لا يتم إلا بتحقيق خطوتين:

الأولى تخليص الدرس النحوي مما علق به من شوائب منهج دخيل عليه هو الفلسفي الذي حمل معه فكرة العامل.

الثانية تحديد موضوع الدرس اللغوي وتعيين نقطة البدء به ليكون الدارسون على هدى من أمر ما يبحثون فيه.

لقد أقام مباحثه في كتابه على هذين الأساسين وحاول في نقده أعمال النحويين ومناقشة أقوالهم أن يسقط فكرة العامل النحوي التي جاءت إلى الفكر النحوي من منهج د. خليل فإذا سقطت فكرة العامل توجه الدارس إلى التركيب اللغوي.

وقد حدد موضوعين مهمين للدرس النحوي أن يعالجهما وأهمل النحويون معالجتهما وهما في نظره يمثلان وحدة دراسية لا تجزئة فيها.

الموضوع الأول: الجملة من حيث تأليفها ونظامها ومن حيث طبيعتها وأجزاؤها ومن حيث ما يطرأ على أجزائها في أثناء التأليف من تقديم وتأخير ومن إظهار وإضمار وحذف. ولما كانت العربية لغة معربة عالج وظيفة ال. ولما كانت العربية لغة معربة عالج وظيفة الإعراب ودلالة حركاته في الأسماء والأفعال. وقد انتقد النحويين لوقوفهم عند الشكل الظاهري لعلامة الإعراب وتفسيرهم إياها في هدى فكرة العمل والعامل فالإعراب عندهم أثر من آثار العوامل. والحق أن الإعراب "بيان ما للكلمة أو الجملة من وظيفة لغوية أو من قيمة نحوية لكونها مسنداً إليه أو مضافاً إليه أو فاعلا أو مفعولا أو حالاً أو غير ذلك من الوظائف التي تؤديها الكلمات في ثنايا الجمل وتؤديها الجمل في ثنايا الكلام".

درس علامات الاسم وهي حركات تدل على إعرابه وهي في العربية ثلاث: الضمة والكسرة والفتحة. جُعِلتْ الضمة علماً للإسناد فكل ما هو في موقع المسند إليه يستحق الضمة. وجُعِلت الكسرة للإضافة فكل ما هو في موقع الإضافة يستحق الكسرة. أما الفتحة فهي علامة لما هو ليس في موقع الإسناد ولا في موقع الإضافة فهي للمنصوبات كل بحسب وظيفته.

والمرفوعات أصالة هي: ١- الفاعل والنائب عن الفاعل في الجمل الفعلية وهي موضوع واحد وعلامتهما الإعرابية واحدة ودلالتها أيضا وهو مسند إليه يتصف

-بالمسند اتصافا متجدداً ولا يتحقق هذا إلّا إذا كان المسند فعلا أو وصفا دالاً على التجدد.

٢- المبتدأ في الجملة الاسمية وهو المسند إليه يتصف بالمسند اتصافا ثابتاً ولا يتحقق هذا إلا إذا كان المسند اسماً جامداً أو وصفا دالا على الدوام.

أما المرفوعات تبعاً فهي ١- خبر المبتدأ إذا كان عين المبتدأ أو ينصب إذا لم يكن ذلك نحو محمدٌ عندَك ٢- خبر (إنَّ) وهو مرفوع على ما ذكرنا لا بالعامل (إنّ) كما يزعم النحويين.

٣- النعت وهو من التوابع.

٤- عطف البيان وهو من التوابع.

والمخفوض أصالة ما كان في موقع المضاف إليه أما المخفوض تبعاً فهو النعت وعطف البيان.

والمنصوب أيضا ينصب إذا لم يكن في موقع الإسناد أو الإضافة ويشمل المفعول والحال والتمييز أو ينصب تبعا لمنصوب.

أما الأفعال فقد درسها بصورة منفصلة ودرس حركة إعراب (يفعل) وهي تختلف في وظيفتها عن وظيفة حركات إعراب الأسماء رفعا ونصبا وجراً ، كما درس أقسام الفعل وأزمانه كما سيأتي.

أما الموضوع الثاني فهو ما يعرض للجملة من معانٍ تؤديها أدوات وقد في دراسته أساليب التعبير وذلك ما لم يوله النحو القديم أهمية، لذا جاءت الأدوات مبعثرة في أبواب عدة فجمع كل ما يؤدي معنى واحداً منها في أسلوبه.

وختم كتابه بدراسة أدوات الوصل في العربية مبينا استعمالها ووظائفها.

أقسام الفعل وتوزيع زمنه:-

لقد أفرد للفعل دراسة مستفيضة وجديدة خاصة في تنويع أزمانه

أما أقسامه فهي لديه ثلاثة هي :

الماضي صيغة (فَعَلَ)

الحاضر صيغة (يفعل)

الدائم صيغة (فاعل ومفعول -)

وهو تقسيم قال به الكوفيون أما فعل الأمر وهو القسم الثالث لدى النحويين فلم يعتدّ قسيما للأفعال إنما هو لديه صيغة دالة على الطلب خالية من الزمن.

ومن الجديد لديه تفعيله الحديث في أزمان الفعل في العربية إذ فرّق بين الزمن الصرفي الذي تدل عليه الصيغ (فعل ، يفعل ، فاعل . .) هو ما يدل عليه الفعل بصور استعماله المختلفة فالاستعمال والسياق يعطيان الفعل أزمانا مختلفة ومتنوعة امتازت بها العربية وغفل النحويون عن العناية بها والتفريق بين الزمن الصرفي والزمن السياقي تناوله الدكتور تمام حسان أيضا كما سيأتي.

قسّم المخزومي زمان الفعل إلى الأقسام آلاتية :

أولا – الماضي:

أ- صيغة (فَعَلَ) ١- الدلالة على زمان مطلق ٢- وقوعه كثيراً أو إمكان وقوعه ٣- وقوعه أثناء الكلام ولا يتم إلا بالكلام نفسه مثل عبارات القسم وألفاظ العقود.

٤- كأنه وقع لتحقق وقوعه كما في الوعد والوعيد والمعاهدات. ٥- الدعاء نحو رحمه الله ووفقه

أما نفي (فَعَلَ) في الزمان الماضي فيقع بـ (لم يفعل) ونفيها في الدعاء يقع بـ إلا.

ب- صيغة (قد فعل) تعبر عن وقوع الحدث في زمان ماض قريب من الحال مثل قد قامت الصلاة. ونفيه يكون بـ (لمّا يفعل).

ج- صيغة (كان فعل) و (كان قد فعل) و (قد كان فعل) وأمثالها لاتستعمل للتعبير عن وقوع حدث في زمان ماض بعيد.

ثانيا الحاضر:

أ- تستعمل صيغة (يفعل) البسيطة للتعبير عن:

١- وقوع الحدث في الحاضر ونفيه (ما يفعل) و (ليس يفعل)

٢- الحدث في المستقبل ونفيه (لا يفعل)

٣- للتعبير عن حقيقة ثابتة مثل : تدور الأرض حول الشمس

٤- عن عادة تعوّدها شخص مثل : ينام خالد مبكراً

٥- تقليد سار عليه شعب أو مجتمع

٦- إن الحدث لا يحدث في زمان خاص ولكنه يحدث في كل زمان مثل : الإنسان يدبّر والله يقدّر.

٧- حدث يكون مستقبلا بالنسبة لحدث وقع قبله في الماضي السابق لزمن التكلم كقوله تعالى (ثم استوى على العرش يدبّر الأمر) ﴿٣-يونس﴾

٨- عن حكاية حال وقعت في الماضي كقوله تعالى (وزُلزلوا حتى يقولَ الرسول) ٢١٢- البقرة.

ب- صيغة (كان يفعل) وتستعمل للتعبير عن استمرار الحدث في فترة من الزمان الماضي وتأتي هذه الدلالة مع أخوات كان : أمسى ، أصبح ، بات ، ظل ونفيه (لم يكن يفعل).

ثالثاً : الفعل الدائم :

١- صيغة (فاعل) المجردة للتعبير عن استمرار الحدث مثل زيد قائم

٢- مضافة غير منونة ، تستعمل للتعبير عن وقوع الحدث في الزمن الماضي.

٣- منونة تستعمل للتعبير عن وقوع الحدث في المستقبل.

٤- صيغة (كان فاعلاً) تستعمل للتعبير عن استمرار الحدث بلا انقطاع فترة من الزمن الماضي. وكذا تتم هذه الدلالة إذا استعمل فاعل مع أمسى وبات وأصبح وظل.

وهذه الدلالة هي نفسها دلالة (كان يفعل) تستعمل للتعبير عن استمرار الحدث في فترة من الزمان الماضي بلا انقطاع.

وتستعمل صيغة (فاعل عن استمرار الحدث في الماضي بلا انقطاع حتى اللحظة الحاضرة مع مازال ومانفك ومافتئ ومابرح.

وذكر أيضا أن في العربية صيغاً كثيرة وسبلا تستعمل للتعبير عن دلالة بعض الصيغ الزمنية لزمان معين كالسين وسوف التي تخلص (يفعل) للمستقبل ، .. (لم) و (لَمّا) في تخليص (يفعل) للماضي .

ونحو (ما) في تخليص (يفعل) و (فاعل) للحاضر ومثلها (ليس) و (إن) في النفي.

ودرس بعنوان (أفعال الكينونة) و (أفعال المقاربة) ما كان يدعى الأفعال الناقصة " إذ جعلها أفعال زمنية وظيفتها في الجملة الدلالة على الزمن فقط وليس لها عمل فيما بعدها كما كان يراها النحو القديم.

وكان ألَف كتابه الآخر (قواعد وتطبيق) على نسق ما وصلت اليه البنيوية الوصفية بادئا بالأصوات ثم الصرف فالنحو فأساليب التعبير التي بث فيها نظراته في الدلالة ولكن بمعالجة ووصف من ثقافته التراثية للخليل وسيبويه والفراء وقد أعاد فيه تقسيم الكلم تقسيماً جديداً هو :

الاسم والفعل والأداة والكنايات وتشمل الكنايات الضمائر وألفاظ الإشارة والموصولات جملة والمستفهم به وألفاظ الشرط. وكان هذا التقسيم أول تقسيم جديد للكلم بعد التقسيم الثلاثي منذ سيبويه المتوفى سنة ٨٠

أن عمل المخزومي ونموذجه التيسير بما كان ذا طابع تعليمي لذلك جاء كتابه الثاني تطبيقاً لما جاء في الأول من نظر.

نموذج تمام حسان:

أما تمام حسان في كتابه (العربية معناها ومبناها) فهو يلتقي مع المخزومي في محاولته إسقاط فكرة العامل ودراسة النحو على وفق منهج جديد يؤكد على المعنى والقرائن التي توصل إليه كما يؤمن بأن النحو نظام للغة وليس دراسة تدور حول حركات الإعراب وعواملها ، لكنه اختلف معه في الوسائل والمنهج. إنّ دراسة تمام حسان دراسة جديدة للتراث النحوي العربي على وفق المنهج الوصفي الذي اعتمد نظرية السياق (context of situation) لدى أستاذه الانجليزي فيرث ، فقد قال : " والغاية التي أسعى من وراءها بهذا البحث أن ألقي ضوء كاشفاً على التراث اللغوي العربي كله منبعثاً من المنهج الوصفي في دراسة اللغة " وهي على حدّ قوله أجرأ محاولة شاملة لإعادة ترتيب الأفكار اللغوية تجري بعد سيبويه وعبد القاهر الجرجاني ، فسيبويه وشيخه الخليل أقاما الكتاب نموذجاً للنحو البصري لأن أصوله

مثلها المنهج البصري في النحو وأما عبد القاهر فقد من نظرية أسلوبية هي نظرية النظم.

أما محاولة تمام حسان فقد انطلقت من كتب التراث النحوي والصرفي في وصفها اللغة بمنهج جديد وقراءة جديدة لهذا التراث حاول تصنيفها بأنها نظرية المعنى، لأن كل دراسة لغوية في كل لغة من لغات العالم لابد أن يكون موضوعها الأول والأخير هو المعنى وكيفية ارتباطه باركان التعبير المختلفة فالارتباط بين الشكل والوظيفة هو اللغة وهو العرف وهو صلة المبني بالمعنى. والدكتور تمام لا ينفي اهتمام علماء اللغة والبلاغة والفقه فقد أكّد اهتمامهم وإدراكهم في آخر كتابه في فصل الدلالة قائلا: (وحين قال البلاغيون لكل مقام مقال ولكل كلمة مع صاحبتها مقام وقعوا على عبارتين من جوامع الكلم يصدقان على دراسة المعنى في كل اللغات لا في العربية الفصيحة فقط، وتصلحان للتطبيق في إطار كل الثقافات على السواء) وللنحاة العرب مقولة لا تقل عن هاتين المقولتين هي (الإعراب فرع المعنى)

قسّم الدكتور تمام كتابه على وفق المستويات التي استقر عليها مفهوم البنيوية الوصفية فأختلف تقسيمه عن تقسيم القدماء وبعد مقدمة مفصلة لدراسته جعل الفصل الأول في (الكلام واللغة موضحاً إن اللغة منظمة عرفية للرمز إلى نشاط المجتمع تتكون من أنظمة ثم ذكر هذه الأنظمة وعناصرها:

النظام الصوتي والنظام الصرفي والنظام النحوي أما المعجم فهو قائمة لا نظام وجعل آخر فصوله (الفصل الثامن) في الدلالة. وبهذا تكاملت دراسته وما يعنينا هنا (النظام النحوي) وهو فصله الخامس.

أقام الدكتور تمام النظام النحوي على أسس أربعة:

١- طائفة من المعاني النحوية العامة التي يسمونها معاني الجمل والأساليب ومجموعة من المعاني الخاصة أو معاني الأبواب المفردة كالفاعلية والمفعولية والإضافة.

٢- مجموعة من العلاقات التي تربط بين المعاني الخاصة حتى تكون صالحة عند تركيبها لبيان المراد وهي قرائن معنوية كعلاقة الإسناد والتخصيص (وتحتها فروع)

والنسبة (وتحتها فروع والتبعية (وتحتها فروع) وهذه قرائن على معاني الأبواب الخاصة كالفاعلية والمفعولية.

٣- ما يقدمه النظام الصوتي والصرفي لعلم النحو من قرائن صوتية وصرفية كالحركات والحروف ومباني التقسيم ومباني التصريف ، وقد أصطلح عليها بتسميتها مباني القرائن اللفظية.

٤- القيم الخلافية أو المقابلات بين أحد أفراد كل عنصر مما سبق وبين بقية أفراده ويتخذ النحو معانيه من المباني التي يقدمها النظام الصرفي ، وهذا – على ما يرى – هو السبب الذي جعل النحاة العرب لا يفصلون بين النحو والصرف.

وقد أقام الدكتور تمام تحليله للمستوى النحوي على فكرة التعليق التي استفادها من عبد القاهر الجرجاني. والعلاقات السياقية في تركيب العبارة تقوم على قرائن معنوية وقرائن لفظية ، ويطلق عليها تسمية القرائن المقالية.

والكشف عن العلاقات السياقية (أو التعليق كما يسميها عبد القاهر) هو الغاية من الإعراب، وقرينه التعليق هي أصعب القرائن من حيث إمكان الكشف عنها والكشف عن هذه القرينة هو الغاية الكبرى من التحليل والإعراب. إن المعنى على مستوى النظام الصوتي والنظام الصرفي والنظام النحوي هو معنى وظيفي وهو في الواقع وظيفة المبني ثم يأتي معنى الكلمة المفردة (المعجمي) وما يكون بمجموع هذين المعنيين مضافاً إليها القرينة الاجتماعية الكبرى التي يسميها البلاغيون (المقام) ، وكل ذلك يصنع المعنى الدلالي ، وإذا اتضح المعنى الوظيفي أمكن إعراب الجملة دون الحاجة إلى المعجم أو المقام. وذلك بأن وضوح المعنى الوظيفي هو الثمرة الطبيعية لنجاح عملية التعليق.

إنّ مصطلح التعليق لدى عبد القاهر هو عند تمام حسان أذكى محاولة لتفسير العلاقات السياقية في تأريخ التراث العربي ، وان فهم التعليق على وجهه كاف وحده للقضاء على خرافة العمل النحوي والعوامل النحوية، لأن التعليق يحدد بواسطة القرائن معاني الأبواب في السياق ويفسر العلاقات بينها على صورة أوفر وأفضل وأكثر نفعاً في التحليل النحوي لهذه المعاني الوظيفية النحوية.

ينبغي أن نتصدى للتعليق النحوي تحت عنوانين :أحدهما العلاقات السياقية أو ما يسميه الغربيون Syntegmatic Relations وهي القرائن المعنوية ، والثاني القرائن اللفظية . فالتعليق يضم نوعين القرائن المعنوية واللفظية وهو الإطار الضروري للتحليل النحوي أو ما يسميه النحاة الإعراب.

أ- القرائن المعنوية هي الإسناد بين الفعل والفاعل ونائب الفاعل أو بين المسند إليه المبتدأ والخبر أ بين الوصف المعتمد وفاعله أو نائب فاعله.

٢- قرينة التخصيص وقد تكون للتعدية أو الغائبة أو المعية أو الظرفية أو التحديد والتوكيد (المفعول المطلق) أو الملابسة (الحال) أو التفسير (التمييز) أو الإخراج (الاستثناء).

٣- قرينة المخالفة كنصب الاسم على الاختصاص.

٤- قرينة التبعية في التوكيد والنعت والعطف والبدل.

٥- قرينة النسبة قد تكون بمعنى من معاني حروف الجر وهي كثيرة أو بمدلول الإضافة.

ب- القرائن اللفظية وهي :

العلاقات الإعرابية والرتبة والصيغة والمطابقة والربط والنظام والأداة والنغمة.

إن هذه القرائن بنوعيها هي التي تحدد المعنى الوظيفي للتركيب ، فقد رأى أن المسؤول عن عملية التعليق وتحديد المعنى الوظيفي للتركيب مجموعة من القرائن تتحدد بحسب طبيعة كل تركيب وتكونيه. وتتضافر فيه أداء هذه الوظيفة وليس قرينة واحدة كما هو تصور النحاة العرب إذ اعتقدوا أن قرينة الإعراب وحدها كفيلة ببيان المعنى الوظيفي في التركيب، ولذلك كان اهتمامهم منصباً على البحث عن العوامل على حين يرى نموذج الدكتور تمام إن علاقة الإعراب هي إحدى القرائن التي تتضافر لتوضيح المعنى الوظيفي. وفكرة تضافر القرائن هي البديل عن فكرة العوامل. تلك الفكرة التي شغلت أصحاب تيسير النحو مثل إبراهيم مصطفى والمخزومي والجواري وغيرهم ، فمادامت الغاية في اللغة فهم المعنى وإفهامه فبتضافر القرائن المقالية والمقامية يمكن الوصول إلى المعنى بلا لبس. والقرائن كلها

مسؤولة عن أمر اللبس وعن وضوح المعنى ولا تستعمل واحدة منها بمفردها للدلالة على معنى وقد يحصل أحياناً التلخص في بعض القرائن اللفظية فلا يؤثر اختفاؤها في ضمان أمن اللبس ومنها قرينة الإعراب نفسها، لأن القرائن الأخرى تفي عنها.

بهذا فسر ما سماه النحويون المجاورة في (هذا حجر ضب خرب) وقرءة الآية (إن هذان لساحران) (٦- طه) وغيرها مما أكثروا من تأويله.

خلاصة القول : كل العالمين كان يرى إسقاط فكرة العوامل وإقامة بديل عنها للوصول إلى المعنى ولا يوصل إلى المعنى إلا إذا فهم النحو على انه علم النظم أو التأليف.

وكلاهما لا يرى قدسية لنموذج النحو القديم وإنما تبقى اللغة واحدة وان تعددت مناهج دراستها، فكان المخزومي يرى في أن النحو متطور أبداً لأن اللغة متطورة أبداً والنحوي الحق هو الذي يجري وراء اللغة فيتبع مسيرتها ويفقه أساليبها وقال تمام حسان: (تتحد اللغة وتتعدد النماذج التحليلية التي يعرضها الباحثون من خلال نظام هذه اللغة).

وكلاهما تعلق من عبد القاهر الجرجاني بنظره في معاني النحو وفكرة النظم ومباحثه الأسلوبية التي كان ينطلق منه وكلاهما أعاد النظر في تقسيم الكلم فقسمها المخزومي على أربعة أقسام وقسمها تمام حسان على سبعة أقسام فما سماه المخزومي (الكناية) ضمنها الضمائر وألفاظ الإشارة والموصول بجملة وأدوات الاستفهام والشرط جعله تمام حسان (الضمير) وضمنه أيضا ألفاظ الإشارة والموصول بجملة وأدوات الاستفهام ، وما سماه المخزومي الأفعال المتخلفة عن التطور سماها تمام الخوالف.

وكلاهما ميّز بين الزمن الصرفي والزمن السياقي فأثبت المخزومي أزمنة كثيرة للماضي والحاضر والدائم وكذا تمام حسان واختلفا في تركيب الشرط وصيغة الأمر إذ نفي المخزومي الزمن عن الفعل فيهما وأثبته تمام وكلاهما رأى أن دراسة النظام النحوي تتصل بما يقدمه النظام الصوتي والصرفي من قيم ومعاني، لذلك رأياً أن تكون دراسة اللغة على ترتيب مستوياتها الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية.

وكلاهما نظر في تقسيم الجملة فقسماها على ثلاثة أقسام اختلفا في القسم الثالث وإن اتفقا على أن الوصف (الدائم) يكون جملة مع ما بعده فالقسم الثالث لدى المخزومي الجملة الظرفية، وهي الجملة التي يكون المسند فيها ظرفاً أو مضافاً إليه بالأداة مقدماً مثل: على الشجرة عصفور. أما تمام حسان فالقسم الثالث لا الجملة الوصفية التي جعلها المخزومي في ضمن الجمل الفعلية التي فعلها دائم.

لقد اتفقا في الغاية بنموذجيها واختلفا في الوسائل للوصول إليها كل على وفق منهجه. المخزومي وعى التراث النحوي وعياً شاملاً فرسم صورة متطورة ومستفادة من التراث بطابع عربي اخذ من كل مناهجهم وخصوصاً الكوفي مع اجتهاده والإفادة من أفكار ومقولات لغوية حديثة.

أما الدكتور تمام حسان فهو ممن أفاد من دراسته في انجلترا فدرس تراث العربية بمنهج وصفي حديث؛ لذا افترقت نظراتهما أحياناً واتفقت أحيانا أخرى ؛ لأنهما في وسط التراث النحوي للغة العربية.

مصادر البحث ومراجعه

– الاجتهاد في النحو – الشيخ امين الخولي – بحث قدم لمؤتمر المستشرقين المنعقد باستانبول ١٩٥١ .

– احياء النحو – ابراهيم مصطفى – مطبعة لجنة التأليف والترجمة – القاهرة ١٩٥٩ .

– اخبار النحويين البصريين – السيرافي – تح الزيني ، خفاجي ١٩٥٥ م .

– الاصول – د. تمام حسان – الهيأة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٢ .

– الانصاف في مسائل الخلاف – ابو البركات بن الانباري – تح محي الدين عبد الحميد مطبعة السعادة بمصر ١٩٥٥ .

– تاريخ الادب العربي – بروكلمان – ترجمة د. عبد الحليم النجار دار المعارف بمصر .

– تيسير النحو التعليمي قديما وحديثا – د. شوقي ضيف – دار المعارف بمصر ١٩٨٦ .

– الخصائص – ابن جني – تح محمد علي النجار – دار الكتب المصرية ١٩٥٢ – ١٩٥٦ .

– الخليل بن أحمد – د. مهدي المخزومي – مطبعة الزهراء بغداد ١٩٦٠ .

– الدرس النحوي في بغداد – د. مهدي المخزومي – وزارة الاعلام العراقية ١٩٧٥ .

– ضحى الاسلام – أحمد امين – القاهرة ١٩٣٨ .

– طبقات النحويين واللغويين – ابو بكر الزبيدي – تح ابو الفضل ابراهيم – دار المعارف بمصر .

- العربية - يوهان فك - ترجمة د. رمضان عبد التواب - مكتبة الخانجي بمصر ١٩٨٠ .

- العربية وعلم اللغة البنيوي - د. حلمي خليل - دار المعرفة الجامعية - الاسكندرية ١٩٨٨ م .

- الفهرست - ابن النديم - مطبعة الاستقامة - القاهرة .

- في النحو العربي - نقد وتوجيه - د. مهدي المخزومي - المكتبة العصرية - بيروت ١٩٦٤ .

- في النحو العربي - قواعد وتطبيق - د. مهدي المخزومي ط . مطبعة مصطفى البابي الحلبي - القاهرة ١٩٦٦.

- اللغة بين المعيارية والوصفية - د. تمام حسان - دار الثقافة - المغرب ١٩٨٠ .

- اللغة العربية المعاصرة - د. محمد كامل حسين - دار المعارف بمصر ١٩٧٦ .

- المخزومي الإنسان -د.عبد الجبار المطلبي - بحث ألقي في أربعينية المخزومي ١٩٩٣ بغداد.

- المدارس النحوية - د. شوقي ضيف - دار المعارف - القاهرة .

- المدارس النحوية - د. خديجة الحديثي - مطبعة جامعة بغداد ١٩٨٦ .

- مدرسة الكوفة ومنهجها في دراسة اللغة والنحو - د. مهدي المخزومي- م دار المعارف بغداد ١٩٥٥.

- نظرة في النحو - طه الراوي - مجلة المجمع العلمي بدمشق م ١٤ ج (٩ ، ١٠) ١٩٣٦ .

- نزهة الالباء في طبقات الادباء - ابن الانباري - تح د . ابراهيم السامرائي - مكتبة الاندلس بغداد ١٩٧٠ .

- هذا النحو - الشيخ امين الخولي - بحث نشر في مجلة كلية الآداب - جامعة القاهرة - المجلد السبع ١٩٤٤ .

- هكذا رأيتهم، د. محمد حسين الصغير- مؤسسة العارف للمطبوعات- بيروت ٢٠٠١م.

تمّ الكتاب

لحمد الله تعالى

تصميم: محمد الخزرجي

دار الضياء للطباعة والتصميم -النجف الأشرف ٩٨٣٢٢١٢